الفصل الرابع

نظـــام المعـــانى بالالفـــاظ

نظـام المعـانى بالالفـاظ

هذا النظام عند الرافعى لايقوم على المساوقة على النحو الذى ذكره فى النظام السابق اعتمادا على تصاقب الالفاظ لتصاقب المعانى أو امساس الالفاظ أشباه المعانى أو غير ذلك •• وانما يقوم على أمر آخر فسره الاديب الباحث بقوله : (١) « والالفاظ فى هذا النوع هى التى تسوس المعانى ، وتنزلها فى منازلها ، وتضعها على أقدارها ، لامن حيث ان اللفظ هو الذى يوجد المعنى فذاك ظاهر الاستحالة ، ولكن على أنه هو الذى يخصص المعنى اذا كان جنسا ، وهو الذى يؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسية حتى تنطق أجزاؤه ، وحتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى » •

والرافعى يعتمد فى هذا القول على عبارات مجازية ، ويؤثر المبالغة ، والخضوع لمـا تتجه اليه النظرة الادبية ، والتأثر بما فى الالفاظ عنده من أشياء يجد فيها الدقة والحكمة والكمال ، فالالفاظ لديه تملك أمر السياسة ، والانزال فى المنازل ، والوضع على الاقدار ، وتمثل المستوى القادر على الاتقان والسمو فى البيان اللغوى •

واللفظ عنده هو الذى يخصص المعنى اذا كان جنسا ، وهو الذى يؤكده •• ولا يوضـح لنا أسرار ذلك بل يتركنا أمام المبالغـة ، والاسراف فى المجاز ، والجنوح الى الغموض • ويمضى ليقرر أن اللغة عمل نفسى محض ، وفيها حياة باطنة تشبه ما فى الانسـان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، حتى تتكافأ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها •

أما وجود نظام المعانى بالالفاظ فهو مـن أخص الدلائل على تمدن اللغة لان النظام الذى يعين درجات المعانى انما يفصل أجزاء المـوجودات على درجـات شـعور النفس بذوات هذه الاجـزاء أو بصفاتها (٢) •

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٨
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨

والدليل الذى يقدمه لنا أنه أثبت العلماء أن أظهر ما يكون الفقر فى اللغات المنحطة انما هو فى أنواع الدلالة المعنوية فكلما انحطت اللغة قلت فيها هذه الانواع ، حتى لتبلغ بها تلك القلة أحيانا الى أن تشبه الجماد فى تجرده من الشعور ومعانيه .

ووجدوا من لغات القبائل المتوحشة فى أواسط أفريقيا ماليس فيها ألفاظ تعبر عن الحب ، والمؤاخاة ، والعبادة ، ونحوها من أمهات المعانى النفسية كأن مادة تلك اللغات من الاحساس الحيوانى المحض » .

ويدرك الرجل أن ما قدمه يحتاج الى ما يدعمه ، فيأتى بموازنة فيها استراحة الى المبالغة ، واغراق فى التفضيل ، وغلو فى التعظيم . « والعربية تعتبر أحكم اللغات نظاما فى أوضاع المعانى وسياستها بالالفاظ ، وهى من هذا القبيل أعظمها ثروة ، وأبلغها من حقيقة التمدن . بحيث لاتدانيها فى ذلك لغة أخرى كائنة ما كانت . فالعرب لم يدعوا معنى من المعانى الطبيعية التى تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم الا رتبوا أجزاءه ، وأبا نواعن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الاجزاء والصفات على مقاديرها .. ومما ننبه اليه فى هذا الفصل أن أرقى الامم مدنية اذا بلغت فيها المعانى النفسية مبلغ الهرم ، وتعلقت بها الخواطر من كل جهة بحيث تفصل أجزاءها تفصيلا فجهد الامة عند ذلك أن تحيط المعنى باصطلاحات علمية ، وتعرف حوادثه على نحو ماتعرف به فصول العلوم كالحب مثلا ، فان مراتبه التى يشير اليها العرب بالالفاظ المتقدمة يشير اليها غيرهم بتعاريف ، وفصول ، واصطلاحات ، ثم لاتعدو بعد ذلك كله ما كان يفهمه العرب منها برقة شمائلهم ، ولطف حواسهم النفسية ، فكأنهم لما عدموا العلوم جعلوا ألفاظهم فصولا علمية وذلك منتهى ما يكون من تمدن اللغات .. » (١) .

والالفاظ المتقدمة هى الحب ومراتبه : الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكلف ثم العشق ، ثم الشعف وكذلك اللوعة واللاعج ثم الشغف ثم الجوى ثم التيم ثم التبل ثم التدليه ثم الهيوم (٢) ..

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ — ٢٣٠
(٢) المصدر ذاته ص ٢٢٩

وينتهى الاديب الى الدعوة الى تدبر نظام المعانى بالالفاظ لنرى أنه انتباه روحى صرف بيد أنه ممثل بالالفاظ ، ونرى أيضا « كأن لنفس العربى طيفا يحرك اللغة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف لها كل عاطفة دقيقة ، ولو اختبأت فى أشعة من النظرات » (١) •

وواضح أن الرافعى جعل كلامه مشوبا بتأثير آداب اللغــة فى نفسه ، ولم يقدر الظواهر اللغوية فى ضوء الاسس العملية وحدها ، وانما مال الى ايثار العاطفة المفرطة ، ولاذ بالغموض تارة ، واتجه الى الاسراف والغلو تارة أخرى ولم يحكم بما يفرضه الاستقراء الدقيق ، وقواعد الدراسة اللغوية الشاملة المحضة •

انه لم يفسر كيف تستطيع الالفاظ أن تقوم بسياسة المعانى ، وانزالها فى منازلها ، ووضعها على أقدارها • ولم يكشف حقيقة منهج التخصص والتأكيد فى ضوء الاسس العملية ، ولم يبين الحياة الباطنة التى فى اللغة والتى تشبه مافى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، كما لم يبين شيئا يمكن أن يساعدنا فى تحديد مستوى أو سر الانتباه الروحى الصرف ، والطيف الذى يحرك اللغة ، ويكشف لها كل عاطفة دقيقة •

والذى يلفت النظر أنه يجعل الالفاظ تتسم بالحكمة العقلية ، ويشير الى لطف الحس ، ودقة الادراك • ويدعونا ذلك الى أن نقرر أن اللغة عند بعض العلماء سواء أكانت الهاما آلهيا أم كانت اصطلاحا بشريا — لابد فيها من وضع يجعل لفظ كذا بازاء معنى كذا (٢) • بوضع واضع أول قدر الحاجة اللغوية ، ووضع الكلمات الوافية بها ، كما لحظ الاعتبارات الحيوية المختلفة بطريق الحكمــة ، وتعرف المستقبل ، وادراك الزيادة التى تحتاج اليها الدنيا ، والقياس الذى يتيح الاخذ أو المخالفة •

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٣٠

(٢) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ — وقارن بأمين الخولى مشكلات حياتنا اللغوية ص ٣٦

وفى الخصائص حكاية عن أبى على الفارسى : « أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم ، وعرفوا مصاير أمورهم . فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعانى ، وأنها لابد لها من الاسماء والافعال والحروف ، فلا عليهم بأيها بدءوا ، أبا لاسم ، أم بالفعل أم بالحرف ، لانهم قد أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جمع . اذ المعانى لاتستغنى عن واحد منهن » (١) .

ويأتى ابن جنى بشىء مما تصورته العرب قبل وضعه ، ويذكر علمها ، وما هو أدل على حكمتها وفهمها ظروف الحاجة اللغوية . يقول صاحب الخصائص (٢) : « وكان أبو الحسن يذهب الى أن ما غير لكثرة استعماله انما تصورته العرب قبل وضعه . وعملت أنه لابد من كثرة استعمالها اياه فابتدءوا بتغييره . علما بأن لابد من كثرته الداعية الى تغييره . وهذا فى المعنى كقوله :

رأى الامـــر يفضى الى آخـــر
فصـــــير آخـــــره أولا

وقد كان أيضا أجاز أن يكون قد كانت قديما معربة ، فلما كثرت غيرت فيما بعد . والقول عندى هو الاول ، لانه أدل على حكمتها ، وأشهد لها بعلمها بمصاير أمرها .. » .

ولا يترك ابن جنى ذلك الا بعد أن يتناوله بالتفصيل والتعليل والدعم بما يشهد . ثم يقول (٣) : « فهذا كله وما يجرى مجراه مما يطول ذكره يشهد لان كل ما يتوقع اذا ثبت فى النفس كونه كان كأنه حاضر مشاهد ، فعلى ذلك يكونون قدموا بناء نحوكم ، وكيف ، وحيث ، وقبل ، وبعد ، علما بأنهم سيستكثرون فيما بعد منها ، فيجب لذلك تغييرها » .

والواضع للغة العربية فى رأى بعض العلماء نظر الى ما يحتاج اليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر (٤) .

---

(١) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١ — ٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣ .
(٤) ابن الاثير المثل السائر ص ٩ المطبعة البهية ١٣١٢ هـ .

أما اختلاف لغات العرب فسببه اختلاف الوضع الاول • ينقل ابن جنى عن الاخفش ما عبارته : « وذهب الى أن اختلاف لغات العرب انما أتاها من قبل أن أول ما وضع فيها وضع على خلاف ، وان كان كله مسوقا على صحة وقياس • ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة اليها ، غير أنها على قياس ما كان وضع فى الاصل مختلفا ، وان كان كل واحد آخذ امن صحة القياس حظا • ويجوز أيضا أن يكون الموضوع الاول ضربا واحدا ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الاول الى قياس ثان جار فى الصحة مجرى الاول » (١) •

ويؤيد ابن جنى ما قاله الاخفش فيقول (٢) : « ولا يبعد عندى ما قال من موضعين أحدهما سعة القياس ، واذا كان ذلك كذلك جازت فيه أوجه لا وجهان اثنان • والآخر أنه كان يجوز أن يبدأ الاول بالقياس الذى عدل اليه الثانى ، فلا عليك أيهما تقدم ، وأيهما تأخر • فهذا طريق القول على ابتداء بعضها ولحاق بعضها به » •

والاهتمام بأمر الوضع أدى الى العناية بعلم يختص به سمى علم الوضع • وهو علم يبحث عن أحوال اللفظ العربى ، من حيث ما يعرف به شخصية الوضع ونوعيته ، وخصوصه وعمومه الى غير ذلك « قال التاج السبكى فى شرح منهاج البيضاوى : الوضع عبارة عن تخصيص الشىء بالشىء ، بحيث اذا أطلق الاول فهم منه الثانى • قال : وهذا تعريف سديد ، فانك اذا أطلقت قولك « قام زيد » • فهم منه صدور القيام منه » (٣) •

« وقال أبو حيان فى شرح التسهيل : العجب ممن يجيز تركيبا ما فى لغة من اللغات من غير أن يسمع من ذلك التركيب نظائر ، وهل التراكيب العربية الا كالمفردات اللغوية ؟ فكما لايجوز احداث لفظ مفرد ، كذلك لايجوز فى التراكيب ، لان جميع ذلك أمور وضعية ، والامور الوضعية تحتاج الى سماع من أهل ذلك اللسان ، والفرق

---

(١) ابن جنى الخصائص ج ٢ ص ٢٩
(٢) المصدر ذاته ص ٢٩
(٣) السيوطى : المزهر ج ١ ص ٣٨

بين علم النحو وبين علم اللغة أن علم النحو موضوعه أمور كليه ، وموضوع علم اللغة أشياء جزئية ، وقد اشتركا معا فى الوضع ..

وقال الزركشى فى البحر المحيط لاخلاف أن المفردات موضوعة كوضع « لفظ انسان » للحيوان الناطق ، وكوضع قام لحدوث القيام فى زمن مخصوص ، وكوضع « لعل » للترجى ونحوها ، واختلفوا فى المركبات نحو « قام زيد » و « عمرو منطلق » ، فقيل ليست موضوعة ، ولهذا لم يتكلم أهل اللغة فى المركبات ولا فى تأليفها ، وانما تكلموا فى وضع المفردات ، وماذاك الا لان الامر فيها موكول الى المتكلم بها ، واختاره فخر الدين الرازى ، وهو ظاهر كلام ابن مالك حيث قال : ان دلالة الكلام عقلية لاوضعية .. » (١) .

وفيما حكاه ابن اباز عن شيخه ان الجمل « يصح أن يقال انها موضوعة باعتبار أنها متوقفة على معرفة مفرداتها التى لاتستفاد الا من جهة الوضع ، ولان للفظ المركب أجزاء مادية وجزءا صوريا وهو التأليف بينهما وكذلك لمعناه أجزاء مادية وجزء صورى ، والاجزاء المادية من اللفظ تدل على الاجزاء المادية من المعنى ، والجزء الصورى منه يدل على الجزء الصورى من المعنى بالوضع » (٢) .

وعلى الرغم مما قيل فى هذا العلم فانه لم يحقق الفائدة المرجوة ، واهتمت بحوثه بالاتجاهات الفلسفية العقلية ، ولجأت الى التكلف ، والاحتمالات الفرضية ، والصور الذهنية الامكانية ، والتقسيمات والتعريفات والاختلافات التى تعول على اعتبارات نظرية (٣) . فالوضع ينقسم الى شخصى ونوعى . والشخصى هو وضع لفظ بخصوصه كأكل .. والنوعى : وهو وضع لفظ داخل قاعدة كلية كوضع المشتقات ، فهى موضوعة كلها بوضع واحد تحته جزئيات كثيرة . « قال الامام عضد الدين الايجى فى رسالة له فى الوضع : اللفظ قد يوضع لشخص بعينه ، وقد يوضع له باعتبار

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢ — ٤٣
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤
(٣) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٣٩

أمر عام ، وذلك بأن يعقل أمر مشترك بين مشخصات ، ثم يقال : هذا اللفظ موضوع لكل واحد من هذه المشخصات بخصوصه ، بحيث لايفاد ولايفهم به الا واحد بخصوصه دون القدر المشترك ، فتعقل ذلك المشترك آلة للوضع ، لا أنه الموضـــوع له ، فالوضـــع كلى والموضوع له مشخص ، وذلك مثل اسم الاشارة ، فان « هذا » مثلا موضوعه ومسماه المشار اليه المشخص ، بحيث لايقبل الشركة ، وما هو من هذا القبيل لايفيد التشخص الا بقرينة تفيد تعيينه ، لاستواء نسبة الوضع الى المسميات • قال : ثم اللفظ مدلوله اما كلى أو مشخص ، والاول اما ذات ، وهو اسم الجنس ، أو حدث ، وهو المصدر ، أو نسبة بينهما ، وذلك اما أن يكون يعتبر من طرف الذات وهو المشتق ، أو من طرف الحدث وهو الفعـــل ، والثانى العلـــم فالوضع اما كلى أو مشخص (١) •• » •

وقد قالوا أيضا فى تقسيم الوضع انه اما تحقيقى واما تأويلى فالاول مالا يحتاج فيه اللفظ الموضوع الى قرينة كوضع الحقائق • والثانى ما يحتاج الموضوع فيه الى قرينة كوضع المجازات والكنايات ، والوضع التأويلى كله نوعى وأما الوضع التحقيقى فقد يكون نوعيا كوضع المشتقات وقد يكون شخصيا كوضع أعلام الاشخاص (٢) •

وفى المزهر مسائل تتناول الوضع ، وتذكر الاختلاف فى وضع الواضع وغير ذلك مما يؤكد ما ذكرناه (٣) ، ويدل على أنه لم يحقق الفائدة المرجوة •

وابن جنى يقرر أن العرب قد أرادت من العلل والاغـــراض ما نسبناه اليها وحملناه عليها ، ويرى أنهم يحتاطون ، ويقتاسون ، ولا يفرطون ، ولا يخلطون • فيهم لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، فان كانت اللغة وحيا فهم المصطفون •• وان

---

(١) السيوطى : المزهر ج ١ ص ٤٦
(٢) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٠
(٣) السيوطى المزهر ج ١ ص ٣٨ — ٤٧

كانت شيئا اصطلحوا عليه فهو مفخر لهم ومعلم من معالم السداد دل على فضيلتهم (١) .

وما رأيناه من أقوال أبى على الفارسى وأبى الحسن وابن جنى وغيرهم يختلف عن رأى الذين لايخالفون طبائع الاشياء ، ويرون أنه لابد من مراعاة النشوء والارتقاء . ونبذ التكلف والوهم والنظرات التى تستند الى الاحتمال ، وتعتمد على فلسفة ضعيفة تنسب الى العرب مستوى لاحد له من الحكمة الشاملة فى تقدير المطالب الانسانية اللغوية النامية المتجددة .

والمنهج الاجتماعى لايقر ما قيل عن صنيع الواضع الاول ، ولا يرضى عن هذا المستوى الذى وصل اليه العلماء السابقون فى حديثهم عن الوضع .

ان المنهج الاجتماعى يقرر أن اللغة ظاهرة اجتماعية ليست صناعة فرد بعينه أو أفراد بعينهم ، وليست عمل جيل بذاته ، ولا توجيه فيها لعقل الفرد أو الارادة الفردية ، ولاتأثير له عليها ، وطبيعتها لاتخضع الا لنتائج العقل الجمعى ومقتضيات الوجود التجمعى .. ولا مجال لعمل الفرد أو الافراد فيها الا ما قد يكون من تأثير لنفسياتهم أو شئونهم العملية الحيوية على النظام اللغوى الذى أنتجه العقل الجماعى (٢) .

وجماع الامر أن ما يسمونه علم الوضع يقوم على أساس مناقض لطبيعة اللغة اجتماعيا ، وهو عمل صناعى لا لغوى .. وما يقرره من بناء العربية على خطة منطقية قد وضعت مقدما — ضرب من العبث الواضح .

والرافعى يرى أنه لولا الطرق التى جرت عليها اللغة فى الوضع ما خطت فى التاريخ خطوة واحدة . ويقول فى طرق

---

(١) ابن جنى : الخصائص ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٥

(٢) أمين الخولى : مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٣ — ٤٤ وانظر: محمود السعران اللغة والمجتمع رأى ومنهج — المطبعة الاهلية بنغازى ١٩٥٨ ص ١٠

الوضع (١) : « وأنت اذا تدبرت المأثور من ألفاظ اللغة وجدته فى الجملة لايخلو من ثلاث اما أن يكون مرتجلا أو مشتقا أو منقولا على وجه من وجوه المجاز • وهذه الثلاث هى طرق الوضع التى تقلبت عليها اللغة • وهى تشبه أدوار الخلقة الكاملة فانها ثلاثة أيضا التركيب والقوة والجمال ، فالمجاز جمال اللغة ، والاشتقاق قوتها ، والارتجال تركيب الخلقة فيها • ويندر أن تجد ذلك كله فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ، فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الاعجاز لانها الخلقة اللغوية الكاملة » •

ولم يشر الرافعى فى نظام المعانى بالالفاظ الى العناصر التى يتألف منها المعنى ، واكتفى باعطاء الالفاظ الهيمنة فى سياسة المعانى ، وانزالها فى منازلها ، ووضعها على أقدارها • ويبدو أنه يريدنا أن نطمئن الى الالفاظ وطاقاتها التى لم يفسرها التفسير الذى يضىء الطريق •

ومن المهم أن نشير الى أن الدارسين قد اختلفوا فى تعريف المعنى وفى تحديده بسبب اختلاف المناهج وكثرة المصطلحات وعدم الاتفاق على مفهوماتها ، ومن الملاحظ فى تباين وجهات النظر تركيز كل منهج اهتمامه على وجه خاص •

فبعض الباحثين يرى أن معنى الكلمة يتألف من اجتماع عدة عناصر يضاف بعضها الى بعض ، ويحدده ما يأتى :

١ — الاصل الاشتقاقى أو المادة الاصلية التى ترجع اليها الكلمة وهى تتألف من مجموعة أصوات أو حروف •

٢ — البناء الصرفى أو الصيغة •

٣ — حياة الكلمة ، والتاريخ الذى تقلبت فيه فحدد استعمالاتها الكثيرة ووجوه معناها أو معانيها المتعددة •

ومن المعروف أن الكلمات يختلف بعضها عن بعض فى المعنى تبعا لاختلاف حروفها وأصواتها ، وكل تبدل صوتى فيها يتبعه تبدل

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨

فى المعنى • وهذا يدل على أن للحروف أو الصوت أثرا فى تكوين المعنى وتحديده •• ولكل لغة طريقتها فى تركيب ألفاظها ، ولها قوانين يخضع لها هذا التركيب (١) • والاصوات التى تتكون منها الكلمة العربية أنواع ثلاثة •

١ ــ الحروف الصوتية أو الصائتة •

٢ ــ حروف المد أو الحروف الهوائية •

٣ ــ الحركات أو حروف المد القصيرة •

والحروف فى العربية ضربان :

أحدهما لتنويع أصول المعانى • وهى الحروف الصائتة • وثانيهما لتنويع المعنى الواحد على حسب أحواله وملابساته للفاعل والمفعول والصيغة وللماضى والمستقبل وغير ذلك • وهذه هى حروف المد الطويلة والقصيرة (الحركات) • يضاف اليها أحيانا بعض الحروف من مجموعة (سألتمونيها) (٢) •

ونزيد ذلك توضيحا فنقول : الحروف الصائتة : وهى ماسوى حروف المد من الاحرف الهجائية ــ هى العماد فى تركيب الكلمة وتكوين معناها ، ويمكن القول بأن اتفاق عدد من الالفاظ فيها معناه اتفاقها فى المفهوم الاصلى ، والخلاف فيها كذلك خلاف فيه بينها (٣) •

أما حروف المد فى العربية فهى عنصر مرن متحول ، ليس من الاجزاء الاساسية فى تكوين الاصول الاشتقاقية • وقد جعلت لتنويع المعنى الاصلى الثابت بثبات الحروف الصائتة فى المادة الواحدة ، وتعينها فى ذلك حروف أخرى تؤلف معها ما يسمى حروف الزيادة المجموعة فى (سألتمونيها) (٤) •• والحركات فى حقيقتها

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٧٥

(٢) محمد المبارك . فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٨٠ وراجع ص ١٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٧٨ ــ ١٨٠ .

حروف مد قصيرة والبناء الصرفى أو الوزن ، وهو ثانى العناصر التى تكون معنى الكلمة وتحدده — يقتطع من المعنى الكلى جزءا محدودا ، ويكون كالقالب الذى يأخذ من مادة المعدن جزءا يحدد أطرافه ، وتتعين بذلك وظيفته •

وذلك كأن تكون مادة الكلمة الاصلية مؤلفة من (فهم) فتبنى على وزن فاعل فتكون كلمة « فاهم » • أو من (ج ل س) فتبنى على وزن مفعل فتكون « مجلس » • وبذلك تكون كلمة « فاهم » أخذت من مادة (ف ه م) المعنى العام • ومن القالب الذى صيغت فيه معنى الفاعلية وكذلك مجلس أخذت من جلس المعنى العام للجلوس ومن الصيغة التى وضعت فيها معنى المكانية (١) •

ومن الواضح أن معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشتقاقى ، والصيغة التى صيغت بها لاتكفى غالبا لتحديد معناها تحديدا تاما دقيقا ، فان كل كلمة بعد أن أخذت من مادتها الاصلية ، وبنيت على أحد الاوزان الصرفية استعملت فى مواطن من الكلام وخصصها الاستعمال بمعان أخص من المعنى العام الذى تدل عليل مادتها ، وبتعدد الاستعمال خلال العصور ، وفى مختلف المناسبات ، وشتى البيئات — يتم أكثر من معنى ، ويجتمع لها أكثر من دلالة ، وللسياق قيمة فى تحديد المعانى وفهم الكلام • وان هذه الاستعمالات التى تستعمل فيها الكلمات ، وهذه المعانى الخاصة المحدودة التى تلازمها فى بعض العصور مدة طويلة أو قصيرة والبيئات التى تعيش فيها هى التى تكون شخصية الكلمة أو ذاتيتها (٢) •

ومن الباحثين من يرى أن المعنى اللغوى هو الفكرة الواحدة البسيطة التى تثيرها الكلمة فى ذهن السامع أو القارىء •• وكذلك الفكرة المركبة من مجموعة أفكار بسيطة •• ويقرر أن علماء النفس يفرقون بين المعنى أو الفكرة ، والصورة الادراكية أو المدرك الحسى •• ، والصورة المتخيلة •• لان الصورة المدركة أو المدرك

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨١ — ١٨٢ •
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٢ — ١٨٣ •

الحسى — مقيدة بالحالة التى عليها فى الواقع والحقيقة كما تظهر للحواس ، والفكرة مجردة من هذه القيود • كذلك الصورة المتخيلة تعد أقل من الفكرة عادة لانها تجنح دائما الى أن تكون شبيهة بالاصل فى خصائصه العامة لكن ينقصها الجو أو الحالة التى تلازم الفكرة ، وفى دراسة الفرق بين الفكرة التى تدل عليها الكلمة أو معنى الكلمة ومجرد الصورة المتخيلة — يظهر أن الصورة المتخيلة المثارة ليست الا جزءا فقط من المعنى الذى يقوم فى ذهن الفرد عندما يفكر فى مدلول الكلمة أو الجملة (١) « فالصورة الذهنية المثارة •• ماهى الا جزء صغيرفقط مما يحدث عندما يفكر الانسان فى معنى أوجملة أوعندما تثير كلمة أو جملة معناها فى الذهن ، فتجارب المرء وخبراته الماضية التى ترتبط بكلمة أو جملة سمعها ليست مجرد سلسلة من المدركات الحسية تحضر فى ذهنه صورا كما أدركها فى الماضى ، وانما تثار فى ذهنه معان لهذه الكلمة أو الجملة هى مزيج من كل ماله صلة بهما من تجاربه الماضية •• فكلمة « بابا » مثلا تعنى الناحية الوجدانية التى تربط السامع بأبيه من سرور وسعادة الخ •• فالسرور أو الالم الذى نال السامع فى حياته من مدلول الكلمة عامل حيوى فى تحديد معنى الكلمة فى ذهنه • ولكن ندر أن يظهر هذا الوجدان فى الصورة الذهنية • ولعل هذا يوضح الفرق بين معنى الكلمة والصورة الذهنية التى تثيرها الكلمة •• » (٢) •

أما فى دراسة المعنى المعجمى والمعنى الذى فى ذهنه المتكلم أو السامع فاننا نجد للكلمة مدلولين أحدهما نفسى والثانى واقعى ، والنفسى هو الذى فى ذهن المتكلم حينما ينطق بالكلمة ، فهو معنى خاص بالمتكلم ، معنى شخصى ، معنى ذاتى محدد بما عنده من تجارب ومعرفة بالشىء وخصائصه وملابساته • « وهذا المعنى الخاص لايمكن نقله بكل خصائصه وملابساته من ذهن المتكلم الى ذهن السامع ، لانه يمثل جزءا من تجارب المتكلم وحياته ، وجزءا يختلف عما عند أى شخص آخر • والمعنى النفسى معنى ذاتى خاص

---

(١) د. عبد العزيز عبد المجيد : اللغة العربية اصولها النفسية وطرق تدريسها — دار المعارف — الطبعة الاولى ١٩٥٢ — ص ٢٠ — ٢١ •
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ — ٢٣ •

مقيد بتجارب الفرد وحياته أما المعنى الواقعى فهو الشىء الخارج عن النفس ، والذى له خصائص تميزه عن غيره من الاشياء الواقعية .. وهذه الخصائص يشترك فى ادراكها الجميع فهى موضوعية بالنسبة للمتكلم والسامع وليست ذاتية ، وهى مشاعة عند كل من يدركها » (١) .

ويرى بعض علماء النفس أن الكلمة تدل على المدلول النفسى الذاتى والمدلول الواقعى الموضوعى . « والمعنى النفسى — بالرغم من طابعه الفردى الخاص له مقابل فى الخارج يتصل به هو المعنى الواقعى ، فالمعنى الداخلى اذن يشير دائما الى مقابل خارجى فى الحياة الواقعية . والمعنى الخارجى يحدد دائرة الكلمة المستعملة أو الجملة ويمنعها من تعدى هذه الدائرة ... ويعرف المعنى الخارجى بأنه المعنى المتفق عليه .. وهذا المعنى الخارجى هو الذى تشير اليه كلماتنا وعباراتنا فى حياتنا العملية .. فالمعنى الخارجى محدد واضح المعالم غالبا عند المتكلمين اذا قورن بالمعنى الداخلى الذى يختلف من متكلم لآخر » (٢) .

وفى عناصر المعنى يميز بعض العلماء أربعة عناصر أساسية تكون معنى الكلمة . وهى المدلول عليه ، والشعور الوجدانى ، والنغم ، والقصد .

والمدلول عليه هو هذا الشىء المقابل للكلمة فى عالم الواقع .. وهو يقابل المعنى الخارجى أو المتفق عليه . أما الشعور الوجدانى فيراد به شعور المتكلم نحو هذا الشىء الذى نتكلم به . والعنصر الثالث هو عنصر النغم . وهو عنصر واضح فى الحديث ، ولايظهر فى الكتابة ، وكثيرا ما كان هو كل شىء فى المعنى ، وكان السبب فى حسن التفاهم أو سوئه .. والعنصر الرابع هو القصد ، الذى تبدو أهميته عند بعض الناس الذين يلوذون به ، وفى حالات تستدعى تدخله ليوضح الفرق ، ويميز الامر (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ — ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٠ — ٣١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣١ — ٣٣ .

ومن أهم الآراء فى دراسة المعنى رأى أولمان Ullmann فقد استطاع أن يخلص الى تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى ، فقرر أن المعنى هو العلاقة بين اللفظ والمدلول • وهى علاقة تمكن كل واحد منهما استدعاء الآخر أى أن اللفظ يستدعى المدلول كما أن المدلول (أى الصورة الذهنية للشىء) يستدعى اللفظ فحين يفكر انسان فى منضدة مثلا ينطق الكلمة أى كلمة منضدة ، وسماعه هذه الكلمة سوف يجعله يفكر فى المنضدة وهكذا (١) •

وقد رتب على ذلك أن الكلمات لفظ ومدلول ومعنى ، وأن المعنى هو هذه العلاقة • وقد اعتمد أولمان فى تقرير هذا كله على تلك المحاولة التى قام بها الاستاذان أو جدن وريتشاردز (٢) فى كتابهما معنى المعنى الذى ظهر سنة ١٩٢٣ (٣) • وفى رأى هذين العالمين « أن هناك ثلاثة جوانب رئيسية تنظمها أية علاقة رمزية : الجانب الاول : الرمز نفسه symbol ، وهو هنا أى فى دراسة اللغة — عبارة عن الكلمة المنطوقة المكونة من مجموعة معينة من الاصوات مثل « منضدة » •

الجانب الثانى : هو المحتوى الذى يحضر فى ذهن السامع حين يسمع الكلمة « منضدة »• وهذا الجانب سماه أوجدن وريتشاردز بالفكرة thought أما الجانب الثالث فهو الشىء نفسه وهو « المنضدة » فى مثالنا هذا وقد يطلق عليه « المقصود » أو « الشىء المعنى » (٤) •

ونستطيع أن نقول بايجاز ان أوجدن وريتشاردز يريان المعنى فى عناصر ثلاثة الرمز والفكرة والمقصود وهو علاقة ذهنية بين

---

(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة — القسم الثانى ص ٦٠ .

(٢) Charles K. Ogden And Ivor A. Richards : Meaning of Meanig London. 1923 - Thirded. New york. Harcourt, Brace. 1936

(٣) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٢٠

(٤) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٥٨ — ١٥٩ .

الحقائق والاحداث من ناحية وبين الرموز أو الكلمات من ناحيـة أخرى (١) .

وأيا كان الامر فان تفسير أوجدن وريتشاردز للمعنى يقوم على أساس رياضى آلى (٢) . وقد اهتم أولمـان بالجانبين الاول والثانى ، أما الجانب الثالث وهو الشىء فانه لم يدخل فى حسبانه ، وأبعده عن الدراسة نهائيا ، لان طالب اللغة انما تهمه الكلمـات لا الاشياء (٣) . ويلاحظ أن أولمـان قد اختار اللفظ بدلا مـن الرمز ، والمدلول بدلا من الفكرة أو الصورة الذهنية ، وجعل فى مقدورنا بعد استبعاد الشىء أن نعرف المعنى بأنه العلاقة المتبادلة بين اللفظ والمدلول ، تلك العلاقة التى تمكن أحدهما من استدعاء الآخـر (٤) .

واذا تساءلنا عن العلاقة بين الفكرة والمقصود فان الجواب يقول انها « تقع فى مجال علم النفس ، ولايعنى ذلك أن اللغة لم يبق لها دور هام تلعبه فى تكوين محتويات عقلية ، وخصوصا من التجريدات » (٥) .

وتبقى العلاقة بين الرمز والمقصود وهى عند بعض الباحثين اعتباطية منسوبة (٦) .

ومن أهم الآراء أيضا فى المعنى رأى بلومفيلد Bloomfield (١٨٨٧ — ١٩٤٩) وهو من أشهر اللغويين ويعد خير ممثل للاتجاه

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٥٣ .
(٢) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٢٠ — وانظر حسان مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٢ — ٢٤٧ .
(٣) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٥٩ .
(٤) راجـع التعليـق على رأى أولمـان فى المصـدر السـابق ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .
(٥) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٦) نفس المصدر ص ٢٤٩ .

السلوكى فى الدراسات اللغوية بمنهجه الذى يفضل أن ينعته بالمنهج الميكانيكى • Mechanistic approach (١)
وهو مؤلف كتاب اللغة الذى يعتبره الامريكيون عمدة لهم •

والمنهج السلوكى يرى « أن السلوك الانسانى يوصف أكمل وصف وأدقه عن طريق اعتبار الظواهر الفسيولوجية وغيرها من الظواهر المادية التى تصيب سلوك الافراد ، ولايتأتى عنده دراسة الظواهر الانسانية دراسة علمية الا بهذا الطريق ، ولما كانت اللغة ظاهرة انسانية فيصدق على دراستها ما يصدق على دراسة سائر الظواهر الانسانية » (٢) •

وبلومفيلد يدخل فى اعتباره بعض العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام ويعتبرها عنصرا لازما لادراك معنى الكلام فهو يرى أن معنى الكلمة يعرف عن طريق أحداث عملية • أى فسيولوجية أو فيزيقية مرتبطة بها فمعنى الجوع مثلا فى قولى أنا جائع يعرف بالتقلص العضلى وما يحد ثفى المعدة من افرازات وما قد يصحب ذلك من عطش (٣) •• الخ •

ويرى أيضا « أن الافكار والتصورات كذلك ينبغى أن يعاد وضعها بألفاظ فيزيقية • وحتى الحب والكره وما اليهما ينبغى وصفهما بمثل هذه الطريق •• » (٤)

وهو لايتجاهل شخصية المتكلم وشخصية السامع وبعض الظروف المحيطة بالكلام ، فلابد فى تعريف المعنى عنده من مراعاة المتكلم دائما وكذلك موقف السامع ان كان ذلك يضيف شيئا جديدا الى الهدف الذى نرمى اليه ، ولذلك نجده يقرر أن معنى الصيغة

---

(١) د. محمود السعران علم اللغة ص ٣٣١ و د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٢ .
(٢) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٣٢
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه .

اللغوية عبارة عن الموقف الذى ينطق فيه المتكلم تلك الصيغة والاستجابة التى تستدعيها فى نفس السامع (١) ونجده يجعل الكلام بديلا من استجابة عضوية لمثير معين (٢) .

وجماع الامر أن هناك ثلاثة أشياء لها اعتبارها عنده وهى :

١ ــ الاحداث العملية السابقة على الحدث الكلامى .
٢ ــ الكلام .
٣ ــ الاحداث العملية التى تلى الحدث الكلامى .

وهذا يؤكد أن المعنى اللغوى عنده يتكون من أشياء مهمة يرتبط بها الكلام ، وهذه الاشياء هى مجموع الحوادث السابقة للكلام والتالية له . ومعنى هذا توجيه اهتمام خاص الى عنصرى الاثارة ورد الفعل أو الاستجابة (٣) .

ويقول الدكتور محمود السعران (٤) : « ونحن طلبة اللغة يعنينا على وجه الخصوص الحدث الكلامى الذى يبدو هين الشأن فى ذاته ، ولكنه وسيلة لغايات كبيرة . ونحن نميز اللغة وهى موضوع دراستنا من الاحداث الواقعية أو العملية هذه الاحداث التى ندعوها بالمثيرات ورود الافعال » .

ولا ريب فى أن منهج بلومفيلد قد نبه اللغويين الى ضرورة ربط المعنى بمجالات غير الكلام ، مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة ، وان كان تفسيره للمعنى تفسير ميكانيكى اذ أنه يحلل سلوك الانسان وفقا لنظريات المدرسة الميكانيكية فى علم النفس (٥) .

---

(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٥ .
(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٣ .
(٣) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ١٦٦ ــ ١٦٨
(٤) علم اللغة ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ وقارن بالمصدر السابق ص ١٦٨ ومناهج البحث فى اللغة ص ٤٧ .
(٥) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

ولا يمكننا فى دراسة المعنى أن نهمل رأى فيرث Firth لانه مؤسس المدرسة الانجليزية الحديثة فى الدرس اللغوى ، وله منزلته فى البحث • والمعنى اللغوى عنده يختلف تمام الاختلاف عن المعنى بالمفهوم الذى اختاره كل من أولمان وبلومفيلد وغيرهما • ان المعنى عند الاستاذ فيرث كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية ، وأهم عناصر هذا الكل هى وظائف الصيغة — الوظيفة الصوتية ، ثم المورفولوجية والنحوية والقاموسية والوظيفية الدلالية ل « سياق الحال » •

ولكل وظيفة من هذه الوظائف منهجها الذى يراعى عند دراستها (١) • وفيرث يوجهنا الى تحليلات عملية ويقصد أن تتجه المستويات المختلفة الى شرح الحقائق اللغوية • وكل فروع علم اللغة انما توجه لدراسة المعنى وتختص بالنظر فيه ، ولكن التحليلات اللغوية كلها ليست المعنى ، ولا هى دراسة المعنى فلابد للوصول الى المعنى من الربط بين النتائج التى توصل اليها التحليلات جميعا ربطا يدخل فى اعتباره سائر عناصر سياق الحال (٢) • ولابد من مراعاة أن الوظائف اللغوية تقتضى مراحل وخطوات ، كما توجب مراعاة الاسس الرئيسية الثلاثة وهى :

أولا : وجوب اعتماد كل تحليل لغوى على ما يسميه فيرث بالمقام مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف وملابسات وقت الكلام الفعلى •

ثانيا : وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس •

ثالثا : النظر الى الكلام اللغوى على أنه مكون من أحداث • وهذه الاحداث معقدة مركبة ، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة ، بل يجب تشقيقها والنظر اليها على مراحل •

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٣٤٠ وقارن بمناهج البحث فى اللغة ص ٢٦٩ .
(٢) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٣٤٠ .

ثم توجب بعد ذلك النظر الى الشخص المتكلم فى الموقف الخاص بوصفه كلا بدون تفريق بين جسمه وعقلـــه (١) •

وحسبنا هذه الآراء التى تمثل أهم المناهج فى دراسة المعنى أما الرافعى فهو يؤكد أن اللغة عمل نفسى محض (٢) • ويبدو أنه يظن أنه لاصعوبة فى تحديد المعنى لان هناك قبل نطق الكلمات عملية تحدث فى نفس المتكلم ، تلك هى ما يسمونها بالفكر ، الادراك ، الصورة الذهنية ، الشعور ، الرغبة ، أو نحو ذلك • كما يظن أن السامع أيضا عندما يستقبل الموجات الصوتية المنبعثة من المتكلم يتعرض لعملية عقلية معادلة أو متبادلة مع تلك التى تعرض لها المتكلم • واللغة عنده بناء على ذلك وسيلة التعبـــير عن الافكـــار والشعور والرغبات •

لقد نحا الرافعى منحى نفسيا صرفا ، بجعلهـــا عملا نفســـيا محضا ، ومن ثم نجده يستخدم ألفاظا يستخدمها علماء النفس ، وهى بعلم النفس أولى منها بعلم اللغة مثل الصورة النفسية ، والشعور الطبيعى ، وشعور النفس ، والحياة الروحية العاليـــة ، والمعانى النفسية والاحساس ، والعاطفة ، ولطف الحواس النفسية ، وأنفاس الخطرات •• (٣) •

ونجده مؤمنا أشد الايمان بأن الاحساس انما هو اللغـــة النفسية الكاملة (٤) ، « والكلمة فى الحقيقة الوضعية انما هى صوت النفس لانها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه من المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب • وصوت النفس أول الاصوات الثلاثة التى لابد منها فى تركيب النســـق البليـــغ حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الالفاظ ومعانيها ، وبين هذه المعانى وصورها النفسية فيجرى

---

(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٧٥
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٢٨ — ٢٣٠ .
(٤) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : الطبعة الثانيـــة ص ٢١٧ .

فى النفس مجرى الارادة ويذهب مذهب العاطفة ، وينزل منزلة العلم الباعث على كليتهما • فان البيان لايؤلف أصواتا لرياضة الصدر بها ، وصلابة الحلق عليها • ولكنها صورة نفسية فى الطبيعة ، وصور طبيعية فى النفس ، فاذا لم يكن حيا ناطقا يلمح بعضه بعضا ، ولم يكن بتركيبه وطريقة نظمه كأنما يحمل من معناه للنفس مادة الارادة أو الفكر لم يجد شيئا ، وانقطع به غرضه ، واستهلكه انصراف النفس عنه ، وصارت معانيه كأن ليس لها أصول فيها ، وكأنها مادة جامدة أو روح مادة ميتة بل هو ربما سفل الى منزلة الاشارة التى هى اللغة الاولى مذ كان الانسان يتكلم بحواسه • والتى هى أضعف الكلام وأخفاه وأشده التباسا فى مذاهب المعانى النفسية •• أما الاصوات الثلاثة التى أومأنا اليها فهى :

١ — صوت النفس ، وهو الصوت الموسيقى الذى يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة ، وعلى نضد متساو بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى فى سبيله الى النفس ان وقف عندها هذا المعنى قطع به •

٢ — صوت العقل ، وهو الصوت المعنوى الذى يكون من لطائف التركيب فى جملة الكلام ، ومن الوجوه البيانية التى يداور بها المعنى حتى لايخطىء طريق النفس من أى الجهات انتحى اليها •

٣ — صوت الحس ، وهو أبلغهن شأنا لايكون الا من دقة التصور المعنوى ، والابداع فى تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرة ، وموادعتها مرة ، واستيلائه على محضها بما يورد عليها من وجوه البيان أو يسوق اليها من طرائف المعانى •• (١) »

أما الجملة فهى « مظهر الكلام وهى الصورة النفسية للتأليف الطبيعى اذ يحيل بها الانسان هذه المادة المخلوقة فى الطبيعة الى معان يصورها فى نفسه ، أو تصفها حتى ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها على حين قد لايراها المتكلم الذى أهدفها لكلامه غرضا ولكنه بالكلام كأنه يراها •• (٢) » •

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩ — ٢٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٨ .

وكل ما ذكرناه يبرز اعتصام الرافعى بنظرية المناسبة ، وقد تمسك بها فى النظام السابق ، وجعلها تسيطر وتوجه ، وتفعل كل ما يثبت وجهها • وهو هنا فى نظام المعانى بالالفاظ يحرص على أن يؤكد سيطرتها ، ويثبت تمكنها الشامل ، ووجودها القوى •

ونستطيع أن نقرر أن جعله اللغة نظاما نفسيا محضا يفيد ماقلناه ، وايمانه القوى بتكافؤ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها برهان واضح على تشبثه بها ، وذهابه الى أن هـذا النظام يفصل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها — لايقر الا سبيل المناسبة ، ولايخضع الا لمـا تفرضه أو تشير اليه • والرجل يعلن ايمانه واعتصامه بوضوح شديد عندما يقول (١) : « ثم أنت اذا تدبرت هذا النوع رأيته انتباها روحيا صرفا بيد أنه ممثل بالالفاظ ، ورأيت فيما ترى كأن لنفس العربى طيفا يحرك اللغة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف لها كل عاطفة دقيقة ، ولو اختبأت فى أشعة من النظرات » •

وفى مجال آخر يزيد موقفه وضوحا فيقول (٢) : « وليس يخفى أن مادة الصوت هى مظهر الانفعال النفسى ، وأن هذا الانفعال بطبيعته هو سبب فى توزيع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة فى اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب مافى النفس من أصولها » •

ان اللغة عنده صورة من الـروح تمتزج بالشخصـية حتى لتحس أن ألفاظ كل انسان ملاى بمعانيه هو ، ومثقلة بخوالجه ، وهى تكشف الاتصال الوثيق بالعاطفة ، وتلك نظرة أدبية مفعمة بمثالية متميزة ، واعتزاز شديد بدور الالفاظ ••

وفى رأيه « أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لايجزىء واحد منها فى موضعه عن الآخر ان أريد به شرط الفصاحة ، لان لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٠ .
(٢) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٢٤ .

فيه والذى تساق له الجملة ، وربمـا اختلف وكان غـيره بذلك أشبه .. » (١) .

وفى رأيه أيضا أن « اللغات وان اختلفت فى اللحن والاستعمال الا أنها تتفق فى المعنى الذى من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من أى قبيل جاءتهم وهذا المعنى هو مناسبة التركيب فى أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التى بازائها ، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه حتى يكون كالنغم الذى يصب فى الاذن صبا فيجرى أضعفه فى النفس مجرى أقواه لان جملته مفرغة على تناسب واحد » (٢) . والذى يهمنا هو الحقائق اللغوية وموقفها مما قاله ، ومن الضرورى أن نبحث عن هذه الحقائق فى اللغة نفسها وعن طريقها ، وأن ننأى عن المبالغة واللغو .

واذا كان الرافعى يدعونا الى فهم اللغة على النهج الـذى اطمأن اليه فنحن نرى أن الفرق كبير بين ما صنعه وما صنعه أولمان . فالاخير قد بسط المنهج النفسانى الذى ارتضاه الاستاذان أوجدن وريتشاردز كما أشرنا ، وقرب الى فهمنا مشكلة المعنى ، ومكننا الى حد كبير من الوقوف على عناصر الموضوع ، كما حدد مصطلحاته ، وبين أساس دراسته ، ولم يصل الى المستوى الذى وصل اليـه الرافعى فى القطع برأيه ورفض ماسواه .

وعلى الرغم من أن الاديب الباحث لم يفسر مذهبه ، ولجأ الى الغموض الا أننا نستطيع أن نقول أنه لاينظر الى الالفاظ على أنها مجرد رموز ، فقد ارتبطت بنفسه ارتباطا وثيقا ، وأصبح من الصعب أن يتصور أى نوع من التفكير بغير هذه الالفاظ ، ويؤكد ذلك أنه يرى حركة النفس هى المعانى القائمة بالفكر (٣) .

وهو لايؤمن بأن الالفاظ لاتعدو فى حقيقتها أن تكون بمثابـة الرموز على الدلالات ، وكل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى

---

(١) الرافعى : اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٤ — ٥٥ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥٥ .

من المعانى .. وبناء على ذلك يمكن أن نقرر أنه ينظر الى الالفاظ التى اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية ، وأصبح يؤمن بأن الاسم واجب للمعنى . ونحن نرى « أن لكل كلمة من الكلمات مضمونا منطقيا ومضمونا أو ارتباطا نفسيا . والمضمون المنطقى وهو المعنى الذى ينص عليه القاموس فى الاغلب يكون الاشتراك فى فهمه واحدا أو شديد التقارب ، ولكن المضمون أو الارتباط النفسى يختلف من متكلم لمتكلم اختلافا كبيرا ، ولايمنع هذا من أن يشترك جمهور المتكلمين باللغة فى طائفة كبيرة من ايحاءاته ، ومما يرتبط به من ظلال المعانى . ونحن لانستعمل الكلمة بمعناها المنطقى مفصولا عن مضمونها النفسى ، ولا بهذا مفصولا عن ذاك . ان الكلمة عندما تصدر عنا أو عندما تصل الى أسماعنا تتضمن هذا وذاك » (١) .

واذا كان الرافعى يقصد فى عملية تعيين درجات المعانى وتفصيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الاجزاء أو بصفاتها — أن يتم التطابق التام فى جملة التجارب وتفصيلات الحياة — فان هذا أمر مستحيل ، فالتكوين النفسى يختلف ، وفهم هذا للكلمة ستلونه ايحاءات وظلال من المعانى غير الايحاءات وظلال المعانى التى تلون فهم الثانى لنفس الكلمة . كما أن الاستجابة عند سماع نفس الكلمة لاتأتى بالتطابق .

ولاندرى ما موقف النظام الذى يعين أو يفصل من الخلافات الفردية والارتباطات المختلفة ، وبعض هذه الارتباطات يظل شديد الخصوصية ونحن لانستطيع أن نخلص كلامنا من كل ارتباط نفسى ، واذا حاولنا ذلك فاننا لاننجح كل النجاح . ان الرموز الرياضية المجردة مثلا يظل لها ايقاع صوتى ، ويثير هذا الايقاع احساسات فى نفس هذا ، ويثير غيرها فى نفس ذلك . وقد يثير ذلك الايقاع احساسات مختلفة باختلاف السامعين أو القائمين وهكذا (٢) .

---

(١) د. محمود السمران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٤ .

ان المعنى عند الاديب الباحث فى صورته النفسية تنطق أجزاؤه حتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى والالفاظ كما ذكرنا تسوس المعانى وتنزلها فى منازلها وتضعها على أقدارها وفى اللغة حياة باطنة • وهذا يدل دلالة واضحة على التأثر بما توحى به نزعته الادبية وخياله الخصب •

ومن المعلوم أن الكلام « ليس مجرد اصدار أعضاء من الجسم الانسانى لاصوات معينة • ان هذه الاصوات توجه الى أذن ، والسامع تقوم فى ذهنه عمليات عقلية متعددة حتى تتحول الاصوات الى دلالات •

والمتكلم نفسه قبل أن يشرع فى الكلام وأثناء الكلام وبعده أحيانا ان كان ينتظر اجابة مثلا — تقوم فى نفسه سلسلة من العمليات العقلية أو النفسية • ففهم الكلمات وبعض ما يتعلق بها من حيث تكوينها وسماعها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية • ومن هذا، ومن كثير غير هذا كان ارتباط علم اللغة بعلم النفس ، ان علم اللغة يستعين بحقائق توصل اليها علم النفس العام ، كما أنه يستعين بحقائق توصلت اليها علوم ودراسات أخر — ولكن ليس معنى هذا أنه يتخذ مناهج علم النفس ووسائل مناهج له ووسائل • كما أنه لايتخذ مناهج علم آخر ووسائله » (١) •

وفندريس يرى أن أصل اللغة من الناحية النفسية يتلخص فى خلق قيمة للرموز ، وهذا ما يفرق بين لغة الانسان ولغة الحيوان • ويؤكد أننا اذا بحثنا عن التحقيق التام للغة فى فرد فسوف لانجده ، وكثير هؤلاء الذين يتكلمون الفرنسية ، ولكن ليس هناك متكلم واحد بالفرنسية يستطيع أن يؤدى وظيفة القاعدة والمثال للآخرين فاللغة الفرنسية لاتوجد فى اللغة التى يتكلمها أى كائن انسانى بمفرده • ويمكن أن يقال باختصار ان اللغة شكل لغوى مثالى • يفرض على الافراد فى الجماعة الواحدة • وأعم تعريف للغة هو أنها نظام من العلامات •• ويقصد بالعلامات هذه الرموز التى تستخدم فى خلق اتصال بين شخص وآخر (٢) •

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٠ — ٥١ .

وعند فندريس أن « الفرق الاساسى بين اللغة العاطفية واللغة العقلية انما يتضح فى تركيب الجملة،وهذا الفرق يبدو جليا حين نقارن لغة الكتابة بلغة الكلام » (١) ، وانما يكون الفرق فى تركيب الجملة فى نظره فى اختيار المفـردات ، وفى طـريقة ترتيب الكلمـات فى الجملة (٢) ..

أما والتر. ف ــ فارتبورج Walter V. Wartburg الاستاذ بجامعة بال بسويسرا ، فيقرر فى موضوع العلاقة بين الكلمة والصورة أن كل مجموعة معينة من الاصوات يقابلها حالـة وعى أو ادراك خاصة . فعندما تسمع الكلمة تنبعث الصورة حالا فى العقل وعلى العكس من هذا اذا انبعثت الصورة فى العقل فانها تثير الكلمة ولو لم تنطقها أعضاء النطق . وهكذا فانه يرتبط بكل مجموعة من الاصوات ، عند النطق بها ، وعند السامع اليها جميعا ، تصور لغوى . ولكن اللغة قائمة فى كل انسان على أنها استعداد . وهـذا الاستعداد ذو وجهين : استعداد للتعبير عن النفس بطريقة مفهومة، واستعداد لفهم ما يحدث عن السماع وهكذا . فاللغة لايظهر منها الا جوانب ، فهى لاتكتسب وجودا حقيقيا مجسما بصورة فيزيقية ، الا عن طريق الكلام .. أى أنه فى كل كلام ننطقه أو نسمعه لايرتفع الى مرتبة الواقع الملموس الا جزء ضئيل فقط من ذلك الكل الـذى يكون حقا قدرة الفرد على الكلام (٣) .

واللغة من حيث حقيقتها « تتصل كما قـال والتر فارتبورج بالعناصر=المكونات الاساسية الاربعة للانسان ألا وهى : الميدان الفيزيقى والميدان العضوى،والميدان النفسى،والميدان الروحى.واللغة من حيث وظيفتها تحمل هذه الاربعة جميعا على أن تتعاون فيما بينها تعاونا فعالا . وهذه الصفة المعقدة التى تتصف بها الظواهر اللغوية تجعل

---

(١) نفسه ص ٥١ وانظـر د. محمـود السـعران علم اللغـة ص ٣٠٢ ــ ٣٠٣ .
(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥١ .
(٣) د. محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى هامش ص ٧٦ ــ ٧٧ .

التحديد الدقيق للظواهر التى يشتغل بها علم اللغــة أمرا بالــغ الصعوبة » (١) .

وبعض الباحثين يقرر أن للغة جانبا اجتماعيا وآخر نفسيا ، ولذلك يستعان فى دراستها بعلم الاجتماع لان اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية ، كما يستعان فى دراستها بعلم النفس فانه يدرسها على أنها حادثــة نفسية (٢) .

ويقرر بعض الدارسين أن اللغة : « أداة مركبة معقدة فهى ذات جوانب كثيرة ، وتتألف من عناصر متعددة ، وتأخذ خلال الزمن أشكالا مختلفة تتنوع وتتعدد بتعدد البيئات والمجتمعات والطبقات . فهى تتألف من حوادث صوتية يبحثها علم الفيزيولوجيا ، وعلــم الفيزياء ، ونفسية يبحثها علم النفس ، واجتماعية يبحثها علــم الاجتماع ، وتاريخية يسردها علم التاريخ ويسجلها ، وجغرافية فيبحث علم الجغرافيا اللغوى فى توزيعها فى القارات والمناطــق والاقاليم . وهى كذلك تتألف من عناصر هى الاصــوات والالفاظ المفردة باعتبار مادتها وصيغتها ومعناها والتراكيب . وهذه العناصر جميعها كثيرا ما تتبدل وتتطور خلال الزمن ، وكثيرا ما تتغير بتغير الاقاليم والمهن والطبقات » (٣) .

ويؤكد بعض الباحثين المتخصصين أن دراسة اللغة على أساس من علم النفس دراسة قاصرة غير سليمة . ودراستها على أساس رياضى أو آلى يؤدى الى النتائج المرجوة . ولكن لابد من فلسفة عامة تقوم عليها دراسة اللغة ، ونقصد بالفلسفة هنا مجموعة من المبادىء أو الاصول أو الاسس مستمدة من موضوع الدراسة وهو اللغة . ولابد من تحديد أكثر من مستوى للدراسة (٤) .

ويرى دى سوسير أنه : « تشتمل دراسة اللغة على ناحيتين احداهما جوهرية موضوعها اللغة المعينــة التى هى اجتماعية فى جوهرها ومستقلة عن الفرد وهذه الناحية نفسية فحسب . أمــا

---

(١) نفس المصدر ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩ .
(٣) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩ — ٢٠ .
(٤) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٨١ — ٨٢ .

الاخرى فتتناول الدور الفردى للغة باعتباره موضوعا لها ، أو بعبارة أخرى الكلام المكون من أصوات وهذه نفسية وعضوية معا » (١) .

ويقرر دى سوسير أن اللغة المعينة منسجمة فى تجانسها ، فهى نظام من العلامات التى ترتبط بمعانيها ارتباطا اعتباطيا ، وتعبر هى ومعانيها على التساوى وعن مدركات نفسية (٢) .

واللغة المعينة فى نظره جزء من الوعى الجمعى أو العقل الجمعى ، وهذا العقل الجمعى انما يوصف به الكائى الاجتماعى الذى قال به دوركايم وهذا الكائن الاجتماعى هو ملخص للمجتمع .. فهى اذا نظام جراماطيقى يوجد تقريبا فى جميع العقول .. وذلك لان اللغة المعينة لايمكن أن تكون كاملة فى ذهن أى فرد بعينه بل لاتكتمل الا فى الوعى العام .

ويرى دى سوسير أن هذا الوعى الجمعى ربما كان له وجود نفسى .. وهو بذلك قد بالغ فى اعطاء اللغة كل هذه الصبغة الذهنية بجعلها نتيجة الحكمة الجمعية ، وحرم اللغة من عنصرها الفردى ، وأتى بمايتنافى مع فكرة اختيار متكلم بلهجة ما ليتخذ موضوعا لدراسة هذه اللهجة (٣) .

أما جسبرسن فيرى أن اللغة فى جوهرها نشاط انسانى ومجهود فردى للشخص الذى يفهم بها أو يتصل بشخص آخر على الاقل .. ويقرر أن النظر الى اللغة باعتبارها العقلى أى كوسيلة من وسائل الاتصال ونقل الافكار لايجعلنا أبدا ندنو من الفهم التام لطبيعتها (٤) . ويبين الدكتور محمود السعران « أن النظرية الكلاسيكية فى اللغة تقوم على أساس منطقى أو رياضى أو نفسى أو آلى يؤدى الى اعتبار اللغة مرآة ينعكس عليها الفكر أو أداة

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣١ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٤ .
(٣) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ .
(٤) نفسه ص ٤١ .

عاكسة للفكر أو مستودعا للفكر المنعكس أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه الى أشباه هذا • أى أن وظيفة اللغة عند أصحاب هذه النظرية هى التفاهم أو توصيل الفكر أو التعبير عن الفكر ، ولكن هذه النظرية لاتمكن من تحليل جميع أشكال السلوك الكلامى،فليس ثمة توصيل للفكر فى أنواع كثيرة من الوظائف الكلامية » (١) • وما قاله هذا الباحث صحيح ، أما قول جيفونز وهو عالم انجليزى فى المنطق والاقتصاد من أن اللغة تخدم ثلاثة أغراض لانها عنده وسيلة للتوصيل ، ومساعد ميكانيكى للتفكير ، ووسيلة للتسجيل فيمكن الرد عليه بما قاله الدكتور محمود السعران (٢) •

والنظر الى اللغة على أنها وظيفة اجتماعية هو الادق والاصح ، لان الاهداف الفكرية الثلاثة تنطبق على المفكرين فحسب ، وعليهم فى أعمق حالاتهم الدراسية فقط (٣) • ويقال أن عميقى المفكرين شكوا من اللغة التقليدية قد عوقتهم أحيانا عن الغوص على الافكار فهى بمفرداتها وصيغتها الثابتة ترغم المفكر على أن يسير على السبل المطروقة ، وأن يفكر كما فكر الآخرون من قبل (٤) •

وهناك من يرى أن تقدير اللغويين لوظيفة اللغة الاجتماعية لايتعارض وما ذهب اليه المناطقة القدماء منهم والمحدثون من أن اللغة فى مجالها الاجتماعى تخدم الاغراض الثلاثة التى حددها جيفونز • ويقرر أن الفيلسوف برتراندرسل يقول : ان للغة وظيفتين جوهريتين هما التعبير والتوصيل • واذا كان جسبرسن يدفع هذا الرأى ويناهضه ويظل مؤمنا بأن للغة وظيفة اجتماعية فان هؤلاء

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٨٤ — ٨٥ وانظر لنفس المؤلف اللغة والمجتمع ص ٤ — ٥ .

(٢) وانظر اللغة والمجتمع للدكتور السعران هامش ص ٥ — ٦ وانظر ص ١٠ وانظر د. كمال بشر : قضايا لغوية دار الطباعة القومية ١٩٦٢ ص ١٧ — ١٨ .

(٣) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٢ واللغة والمجتمع للدكتور محمود السعران ص ١٠ وقضايا لغوية للدكتور كمال بشر ص ١٩ — ٢٠ .

(٤) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٢ .

لاينكرون الجانب الاجتماعى والسلوكى فى حياة اللغة سواء أكانت لغة طفل يعبر بها عن رغباته وحاجاته أم لغة عالم أو فيلسوف ارتقت معه لغته فأصبحت تؤدى دورا آخر بالاضـــافة الى دورها الاجتمـــاعى (١) .

ولا يتسع المجال لتناول النظرية الكلاسيكية بتفصيل أكثر ونقد أوسع وأشمل وحسبنا ذلك .

ونمضى فى طريقنا لنوضح أهم الآراء فى اللغة فنقول : يقول هارولد بالمر : « ان هذا الشىء المركب غير المتجانس الذى نسميه اللغة يشتمل فى الحقيقة على ناحيتين : أولا حاصل جمع أحـــوال النشاط الذهنى والعضوى الذى يقوم به شخص حين ينقل لشخص آخر .. ادراكا ما (فكرة أو رأيا أو عاطفة) . وهذا هو الكلام . ثانيا : حاصل جمع أوضاع متعارف عليها منظمة ومقبولة من الجمهرة الاجتماعية التى تستعمل الناحية الاولى لتضمن الوضوح المتبادل بين أفراد هذه الجمهرة وهذه هى اللغة . فالناحية الاولى طائفة من النشاطات الشخصية ، والثانية طائفة من أوضاع التعارف .. ونظرية الكلام من دراسة علم النفس وتطبيقه من عمل المتكلم ، ونظرية اللغة من دراسة علم اللغة . وتطبيق اللغة يقوم به هؤلاء الذين يعملون ويدرسون كودها بأنفسهم . وكلما نجحنا فى نقل مدركاتنا فنحن نطبق الكلام وكلما حللنا طريقة تعبيرية بنحاح أو شرحناها أو كونا جملة أجنبية بالطريقة التركيبية الخالصـــة فنحن نطبـــق اللغـــة » (٢) .

أما سابير فيرى أن اللغة طريقة انسانية غير غرزية لنقل الافكار والعواطف والرغبات بواسطة نظام من الرموز التى تستعمل بحسب الارادة (٣) .

---

(١) د. السيد أحمد خليل : اللغة بين الادب والتشريع ص ٢٣ — ٢٤
(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٤٤ — ٤٥ .
(٣) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٥٩+د : تمام حســـان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٥ .

« وجوهر اللغة يتلخص فى أنها تخصص رموزا صوتية للعناصر المختلفة للتجارب • وهذه الرموز يجب أن تكون مخصصة بحسب التعارف لا بحسب الطبع ، ولا المنطق • أى أن العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها علاقة اعتباطية غير مسببة » (١) •

ويتجه بلومفيلد الى توضيح الحقائق الكلامية فى ظل الفهم للنفس الانسانية ، وهو مع ذلك يحذر الباحث من الاعتماد على نظرية من نظريات علم النفس (٢) •

ومن العلماء من يعتبر أن للنفس نظاما يختلف عن نظام المادة الملموسة المحسوسة فى كنهه ، ويمت الى عالم آخر غير عالم المادة المألوفة لنا ، فهو غير خاضع للتجربة ، والملاحظة بواسطة الحواس • ولاشك أن كل مقدمات فى هذا النظام النفسى تؤدى حتما الى نتائج معينة ، فليست تسير النفوس على غير هدى أو دون نظام وان كنا لانزال نجهله ، ولانقف على أسراره فلو أنا نعرف تفاصيل هذا النظام النفسى لامكن التنبؤ بنتيجة الكلام فى كل مرة يتم فيها النطق بتلك الاصوات اللغوية (٣) •

ومن العلماء من يرى أن الجسم الانسانى جهاز شديد التعقيد ، ويوجه الى أن أصحاب علم النفس يكتفون بنوع من التجربة الخارجية حين شق عليهم ملاحظة ما يجرى فى داخل الجهاز الانسانى ، وقنعوا بملاحظة الآثار التى تترتب على تلك العمليات الداخلية لعلهم يهتدون الى شىء من أسراره وخفاياه • وقد أدى ذلك الى اكتفائهم بأن يقال أن الناس فى مجموعهم يتصرفون تصرفا معينا حين يسمعون جملة معينة دون تخصيص فرد معين بمثل هذا الحكم • ان العناية توجه الى النظام العام الذى ينتظم كل الافراد ، والذى جرت به العادة فى بيئة لغوية معينة (٤) •

---

(١) د. تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٥٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٩ — وانظر ص ٤٥ — ٤٩ .
(٣) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ٥٧ .
(٤) نفس المصدر ص ٥٨ — ٦١ .

ومن الباحثين من لاحظ أن الظواهر اللغوية تعتمد فى أدائها على ظواهر نفسية ، **وتأثرها بها لا يقل عن ارتباطها بالظواهر الاجتماعية** • فالحد ثاللغوى أو العبارة يستدعى أمورا منها الباعث على التعبير **والتفكير فيه وتكوين الفكرة وايضاحها أو غموضها** ، وارتباط هـذه الاشياء بعقل الانسان وجنانه ، وتذكره ووجدانه ، **وغير ذلك من** الظواهر النفسية • هذا الارتباط يظهر أثره فى تخير الالفاظ ورقى العبارة أو انحطاطها ،ومطابقتها للمعنى أو انحرافها عنه • كذلك تفاوت السامعين فى فهم العبارات تبعا لتفاوت مداركهم قوة وضعفا ، هذه الملاحظات وأشباهها دفعت العلماء الى بحث العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية ، وكان من نتيجة هذه البحوث علـم النفس اللغـوى (١) •

وشتى الآراء التى ذكرناها لم تذهب الى المستوى الذى ذهب اليه الرافعى فى اعتبار اللغة عملا نفسيا محضا ، وفيما ذكره فى التعيين والتفصيل ، وتكافؤ النفس واللغة ولا نرتاب فى أن الرجل يمثل نظرة أدبية ، ورؤية نفسية خالصة • وعالم اللغة يهمه الحقائق اللغوية ، وسبق أن ذكرنا أن الاسم ليس واجبا للمعنى (٢) •

ولا نشك فى أن الالفاظ اصطنعها الانسان للتعبير عما يخطـر فى ذهنه غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية •

والاديب يربط بين الالفاظ والمعـانى ، واذا أردنا الصـواب والدقة فان الربط الحقيقى لايكون الا بين الشىء وصورته الذهنية أى أن اللفظ شىء أجنبى عنهما اتخذ دليلا عليهما ، أو رمزا لهما ، **ولكنه اكتسب مع الزمن صفة نحت به فوق اعتباره مجرد رمز من** الرموز (٣) •

---

(١) د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة الطبعة الثانية ص ١٠ .
(٢) انظر هذا البحث ص ٤١ ، ٤٨ .
(٣) د. ابراهيم أنيس : دلالة الالفاظ ص ١٠٢ .

ومن الملاحظ أنه ينسب للالفاظ ما ليس لها فى الحقيقة ، وهـو بما يؤمن به من كمال اللغة ، وما يمتاز به العرب من رقة الشمائل ولطف الحواس النفسية ، وتمدن مستواهم اللغوى الذى جعـل ألفاظهم فصولا علميـة لانه يرى أن اللغة تصور ألفاظها الحقيقة كما هى وكما يريدها المتكلم ، ويتصـورها — يؤمن بأن الكلمات مصقولة تبرز الانطباعات الدقيقة من وجداننا الفكـرى ، وتعبر التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا ، وعندما تدل على الشىء المقصود نفسه كما هو فى الواقع أو فى تصور المتكلم نفسه — لاتندس بعض الحجب بينها وبيننا فتحجبها عنا (١) .

ان الانتباه الروحى ممثل بالفاظ وهى تكشف كل شىء . والرافعى يؤكد ذلك كله بوضوح وايمان عميق حين يقول : (٢) « ومما لاتقضى منه عجبا فى تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لاينقصها شىء من دقائق المعنى فى أصل وضعها على حين لايفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كأنها منزلة تنزيلا ممن يعلم السر ، وقد نبهنا الى هذا فى كتابنا (تاريخ آداب العرب)وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته ، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التى تفوت العقل ، حتى ان أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفض العلوم والفلسفة خواتمها فى عصور آتية لاريب فيها . وكلمة التوليد التى لم يفهم منها العلماء الا أخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التى أشاروا اليها فى كتب الادب هى الكلمة التى لايخرج عنها شىء من أسرار النبوغ ولاتجد ما يسد فى ذلك مسدها أو يحيط احاطتها ، ولاتظن فى لغة من اللغات ما يشبهها فى هذه الدلالة ، واستيعابها كل أسرار المعنى اذ هى بلفظها نص على حياة الكون فى الذهن الانسانى وأنه يتخذه وسيلة لابداع معانيه ، كما يتخذ سر الحياة بطن الام وسيلة لابداع موجوداتـه ، وأن المعانى تتلاقح فيلد بعضها بعضا فى أسلوب من الحياة ، وأن هذه هى وحدها الطريقة لتطور الفكر ، واخراج سلالات من المعانى بعضها

---

(١) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٥ .
(٢) وحى القلم : الطبعة الثالثة ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

أجمل من بعض كما يكون مثل ذلك فى النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وأن النبوغ ليس شيئا الا التركيب العصبى الخاص فى الذهن .. »

ومن الحق أن نقول اننا نجد اختلافات شاسعة لدى الافراد بين ما يشير اليه هذا اللفظ أو ذاك فى الواقع الفعلى وبين ما يمكن أن يعبروا به عن انطباعاتهم ازاء اللفظ المعين ، فالالفاظ تحمل مضامين بالنسبة الى الافراد تختلف وتتباين تبعا لنوع الخبرة المكتسبة (١) .

ومما يلزم مراعاته أن المتكلم فى أى لغة من اللغات لايستطيع أن ينقل الى مخاطبه الصورة الحقيقية التى يريد نقلها ، والاخبار عنها بجميع دقائقها وجزئياتها وذلك لان اللغة انما تقدم له ألفاظا تدل على عموميات وكليات وأنواع وأجناس . وفى كل لغة قدر من التجريد ، وضرب من التصنيف لابد من ملاحظته ، والتجريد يؤكد أن ألفاظ اللغة مفاهيم مجردة جردها أصحاب اللغة من الواقع ، ونفهم ذلك اذا اعتبرنا أن كل لفظ تدخل تحته أفراد كثيرة ، ويسمى كل واحد منها بذلك اللفظ . « ويبقى اللفظ مشاعا بينها ، قابلا للانطباق على كل واحد منها دون تخصيص . فكلمة شجرة مثلا تنطبق على كل شجرة أيا كان نوعها وأنى كانت بمعنى أننا جردنا من أفراد الشجر الكثير المتنوعة فى أشكالها وألوانها وأطوالها وصفاتها صورة مشتركة بينها ، وأطلقنا على هذه الصورة المتخيلة المجردة كلمة شجرة » (٢) .

أما التصنيف فنفهمه اذا عرفنا أن تسمية الاشياء ووضع الالفاظ للدلالة عليها فى كل لغة من اللغات نوع من تصنيف الموجودات « فيدخل تحت لفظ الشجرة والدار والحجر والمشى والقطع والصوت وسائر الالفاظ الدالة على شىء مادى أو فعل — أفراد كثيرة لاتحصى ، وليست هى متماثلة متطابقة . وكذلك يدخل تحت كل لفظ من الحب والبغض والحزن والغضب والنشوة حالات كثيرة جدا يختلف بعضها

---

(١) د. نوال محمد عطية : علم النفس اللغوى . نشر مكتبة الانجلو المصرية — الطبعة الاولى ١٩٧٥ ص ٨ .
(٢) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

عن بعض ، ولكن اللغة جمعتها تحت عنوان واحد ، وجعلتها نوعا يسمى باسم واحد » (١) .

ولاجدال فى أن اللغة أقدر الوسائل التى عرفتها الانسانية فى تاريخها الطويل للتعبير عن الافكار ، والانفعالات ، والعواطف ، وهى على قدرتها تنقصها الدقة أحيانا . ذلك لان الطاقة اللغوية عند المستعملين لها تختلف من شخص الى آخر (٢) يقول Potter : « ان المعرفة قدرة ولكن القدرة على اختيار الكلمات التى تؤدى بها هذه المعرفة أقوى وأعظم سواء أكانت هذه الكلمات أريد بها الاقناع أم الاخبار أم الاثارة » (٣) .

ويبدو أن الرافعى لم يراع الفروق التى بيننا ، ولم ينظر الى ماتعجز عنه اللغة . ومن المهم أن يكون فى الاعتبار أن أى لغة تعجز عن التعبير الكامل عن آرائنا ومشاعرنا « فالفروق بينها كثيرة لاتكاد تلمس فتضطرنا اللغة مثلا أن نعبر بلفظ الحب أو البغض عن آلاف من ضروب الحب والبغض كلها مختلفة ، وكذلك الحال فى موضوع آلامنا ملاذنا (٤) .

ولا يجب أن يغيب عنا أن الكلمة غير مصقولة تختزن من انطباعات البشر كل ما هو ثابت ومشترك ، أى غير شخصى ، وتسحق أو تغطى على الاقل الانطباعات الدقيقة والعابرة من وجداننا الفكرى (٥) . « والالفاظ عدا الاعلام تدل كلها على أنواع . والكلمة وهى لاتسجل من الشىء المسمى الا وظيفته الاكثر اشتراكا ووجهه المبتذل ــ تندس بينه وبيننا .. وليست الاشياء الخارجية وحدها هى التى نقلت منا ، بل حالاتنا النفسية الخاصة بنا فى أخص ما فيها ، وأكثره شخصية وما نحياه حياة ابداع . فنحن لانلتقط من مشاعرنا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ .
(٢) د. السيد احمد خليل : اللغة بين الادب والتشريع ص ٢٣ .
(٣) Potter : Our Own Language. P. 2 - 3
(٤) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٤ .
(٥) نفسه ص ٢٠٤ .

الا جانبها غير الشخصى ذلك الذى استطاعت اللغة تسجيله لمرة واحدة نهائية لانه واحد بالنسبة الى جميع الناس فى الاحوال نفسها » (١) •

والتسمية اللغوية ليست الا تصويرا لبعض جوانب المسمى أو بعض صفاته أو أجزائه أو أبرز أعماله • « والكلمة ليست تعريفا للشىء ، ولا تحديدا لكنهه ، ولا وصفا محيطا بجملته وأجزائه ، فقد يكون اللفظ فى أصل معناه أوسع من المسمى ، وهو الغالب • وانما يأتى التخصيص من الاصطلاح والتواضع •

فلفظ الجنين من مادة جنن ، وهى مادة تفيد الستر ، وسمى الجنين كذلك لانه مستور فى بطن أمه ، وليس الستر هو الصفة الجامعة المانعة للجنين ، وانما هى احدى صفاته ، ويشاركه فيها موجودات أخرى أيضا • ويمكنك أن تقول مثل هذا القول فى سائر الالفاظ المحتفظة بمعانيها الاصلية ، والموضوعة لمدلولات معينة مثل الحديقة والجمل والسيارة والطريق والزكاة والربا » (٢) •

وللكلمة تاريخ طويل ينفى الذاتية . ويكون لها تصورا خاصا عند كل فرد • والقدر الحقيقى لمعرفة الانسان بعالم المتكلم قدر ضئيل جدا ، والمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، أما وجهات النظر فهى تختلف فى عملية التحديد وكذلك يختلف مزاج المتكلم وحالته النفسية والثقافية ، وتختلف العوامل الوراثية ، وقد تستعمل الالفاظ فى غير المواقف التى اعتاد أكثر الناس استعمالها فيها • وهناك صعوبات أخرى يجب مراعاتها (٣) •

وفى ضوء ذلك يظن بعض الناس أن المعانى مكانها العقل أو الذهن وهنا يصعب الوصول الى المعانى العقلية أو المعانى المختزنة فى الذهن أو يستحيل أحيانا الوصول اليها •

---

(١) نفسه ص ٢٠٤ .
(٢) نفسه ص ١٩٦ .
(٣) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الثانى ص ١٦٣ — ١٦٤ .

والظواهر اللغوية عند بعضهم يجب ألا يعتمد فى تفسيرها وتحليلها على أسس عقلية أو ذهنية ، وانما يجب الاعتماد على الحقائق اللغوية (١) • ويرى بلو مفيلد أن معرفة معنى اللفظ أو العبارة أو تحديده تحديدا علميا دقيقا يحتاج الى معرفة أشياء ليست فى مقدورنا ولا نستطيع الوصول اليها بحسب امكاناتنا الحالية • وفى ذلك يقول : (٢) « أن تقديم تعريف علمى لمعنى كل صيغة فى لغة ما يوجب علينا أن نكون عارفين تماما بكل شىء فى عالم المتكلم بهذه اللغة • ولكن القدر الحقيقى لمعرفة الانسان بهذا العالم قدر ضئيل جدا • قد تكون لدينا المقدرة على تحديد معنى كلمة من الكلمات تحديدا علميا وذلك عندما يكون هذا المعنى مختصا بأشياء لنا معرفة علمية بها • انه من الممكن مثلا تعريف أسماء المعادن عن طريق الالتجاء الى أساليب الكيمياء أو علم المعادن كأن نقول مثلا ان المعنى العادى للكلمة « ملح » هو كلوريد الصوديوم • وكذلك يمكننا أن نعرف أسماء النبات والحيوان عن طريق الاصطلاحات المستعملة فى علم النبات والحيوان ، ولكن ليست لدينا طرق دقيقة لتحديد معانى كلمات كثيرة أخرى ككلمة حب أو كراهية التى تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا • وهذه المواقف وأمثالها تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الانسانى » •

ويتدرج بلو مفيلد فى حديثه قائلا (٣) : « وعلى فرض قدرتنا على تحديد معانى بعض الكلمات عن طريق استخدام المصطلحات العلمية المتفق عليها فى بعض العلوم فسوف تقابلنا صعوبات جمة فى الطريق •• » •

ونحن نؤيده فى أنه من الصعب الوقوف على معانى الالفاظ وقوفا دقيقا يمثل كل ما يقصده مستوى النهج المثالى ، ولكننا لانرى اخراج العقل والفكر من الدراسة ، اذ لايمكن أن تخرج الدوافع

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ .
(٢) المصدر ذاته ص ١٦٣ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٦٣ — ١٦٤ .

الاساسية كالبواعث والحاجات والرغبات للانسان والطبيعة الاجتماعية وفى كلامه ما يتضمن اعترافا بامكان دخول العناصر الذهنية أو العقلية فى المسائل اللغوية ، وان كان ينصح بعدم الالتجاء اليها لصعوبتها ، ويتهرب هو نفسه من التورط فيها (١) •

ومن الواضح أن الدلالة أمر فردى لاتكاد تتحد فيه الاذهان بل تتباين تباينا كبيرا ، وان كان اللغوى لايقف أمام الدلالات المتباينة مكتوف اليدين بل يحاول تحديدها (٢) •

والرافعى لايرى أن تحديد المعنى أمر على جانب كبير من الصعوبة ، ولا ينظر الى الخلاف على معانى الالفاظ ، وما صنعته المناهج الكثيرة فى التفسير ، وكذلك لم يراع أنه على الرغم من مراعاة الدقة الكاملة فان النزاع يحدث والخلاف يكثر ، وأن هناك لغات لها طبيعة خاصة تعول على الالوان والظلال المختلفة التى تثيرها الكلمات وهناك استعمالات يومية للالفاظ وايحاءات وارتباطات نتجت عن الحياة المشتركة •

وفى كلامه ما يدل على اعتماده فى المستوى الذى تصل اليه الالفاظ فى سياسة المعانى وانزالها فى منازلها ووضعها على أقدارها — على المعنى القاموسى أو المعنى المعجمى ، فقد أشار الى اعتماده على كتاب الثعالبى (٣) •

والكلمة لها غير المعنى القاموسى العام ، فالمعنى المذكور ليس كل شىء فى ادراك معنى الكلام • فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير فى تحديد المعنى ، بل هى جزء أو أجزاء من معنى الكلام كشخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب ، وما بينهما من علاقات ، وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به كالجو مثلا ، أو الحالة السياسية • ومن حضور غير المتكلم وغير المخاطب وعلاقتهم بهما (٤) •

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧١ .
(٢) د. ابراهيم انيس دلالة الالفاظ ص ١٠٤ .
(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ص ٢٣٠ .
(٤) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٢٨٨ بتصرف يسير .

والمعجم لايستطيع أن يحصر جميع السياقات التى تقع فيها كل عبارة ، وكل كلمة من كلمات اللغات وعباراتها • انه قد يأتى بأنواع من دلالات الكلمة أو العبارة ، ولكن تحديد معنى الكلام يحتاج الى مقاييس وأدوات أخرى غير مجرد النظر فى القاموس • والكثير من الخلافات والمشقات والآلام مرجعه أننا لانعرف معنى ما نقوله أو ما يقال لنا أو ما نسمعه أو نقرؤه (١) •

ولا يقر الرافعى الا الاساس الذى يسير عليه وهو العمل النفسى المحض ، والتكافؤ الذى يؤدى الى أن تقوم النفس بالتصور ، وتقوم اللغة بالتصوير •

ومن حقنا أن نساءل كيف يقوم العمل النفسى المحض بايقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين ؟ ! وما موقف التكافؤ هنا ؟

والرجل يقبل التضاد اذا صحت فيه الحجة ، ونهض به الدليل ، وغير ذلك يعد عنده عبثا « لمـا فيه من التباس أطراف الكلام ، ورجوع بعضه على بعض بالنقض ، وان اصطحب من القرينة بما يوضح تأويله ، ويعين جهة الخطاب فيه • وذلك مالايمكن أن يغمز فيه على العربية ، وهى بخصائصها وسنن أهلها فى الوضع والتصرف تعتبر كالعقـل المدرك فى جمجمة اللغات » (٢) •

وهو يذكر المذاهب فى التضاد ، ولكنه يشعر بأن هناك ما لايتفق مع آرائه فيعود الى ذكر رأيه فيه ، ويضعف موقفه ، ويهاجم نسقه ، ثم يجد نفسه مضطرا للاعتراف به ، واقرار ما جاء منـه لقبائل مسماة وبيان حكمه فى وجهه • يقول فى تاريخه (٣) • « والذى عندنا فى ذلك أن التضاد ليس قديما فى اللغة ، ولا هو من سنن الوضع عند العرب لانه لاتمس اليه الحاجة الطبيعية ، وليس فى كل ماورد من ألفاظه لفظة واحدة تفتقر اليها اللغة • فلابد أن يكون أصله حادثا فى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ — ٢٩٠ •
(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٩٤ •
(٣) نفسه ص ١٩٥ — ١٩٧ وانظر الاضداد فى دائرة المعـارف المجلد الثانى العدد (٥) يونيه ١٩٣٦ ص ٢٩٦ — ٣٠٠ •

زمن النهضة التى تقدمت الاسلام حين اختلطت القبائل ، وانصرف العرب الى زينة المنطق ، والتملح فى الكلام ، فهو تفنن تدخله بعض القبائل فى لغتها ، وتتوسع به لاحدى المناسبات المرهونة بأوقاتها ثم يعرفون به ويمضون عليه فى التعبير فيثبت فى ميراث القبيلة من اللغة .

ومما يرجح ذلك أن الالفاظ التى يتحقق فيها معنى التضاد الطبيعى قليلة كالسدفة للضوء والظلام ، والصريم لليل والنهار ، والجون للابيض والاسود ، والسجود للانحناء والانتصاب ، ونحوها . وقليل منها منسوب للقبائل التى استعملته على وجهيه . أما أكثر مايعدونه من الاضداد فمعظمه حادث فى الاسلام اقتضاه تصرفهم فى اللغة على ضروب من الاشارة والايجاز فهو تفنن محض ، لايرجع الى الوضع الواحد ولا المتعدد بل يكاد يعد نوعا من البديع أو الصناعات اللفظية ... ولو صح أن التضاد قديم فى اللغة ، وأنه ثابت فى أصل الوضع لفسد هذا الوضع ، ولبطلت حكمته ثم لابد أن يكون من أثر ذلك شىء كثير فى منقول اللغة . وهو خلاف الواقع ، حتى أن العلماء كانوا يتميزون من هذا النوع بمعرفة ألفاظ معدودة .. أما الالفاظ التى رويت من هذا الباب ونسبوها لقبائل مسماة فقد حرصنا على جمعها اتباعا لطريقتنا التى نحوناها فى هذا التاريخ لانا نرى فى مثل ذلك أشباحا للمعانى التاريخية التى ذهبت فى آفاقها ، والشبح ان لم يفصل معانى جسمه ، ولم يضبط أجزاءه ، فلا أقل من أن يعين موقعه، ويظهر منه صورة مبهمة وذلك فتح عظيم فى مثل هذا التاريخ المستغلق بابه ، المضروب على الغيب حجابه .. » .

ومن الغريب أن الرافعى يقر المشترك ، ويعترف بأنه وجه من وجوه الوضع . والمضاد نوع من المشترك (١) . وهو يرفض اعتباره من الوضع ، يقول ألكيا (٢) : « المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين . فما يقع على الضدين كالجون ، وجلل ، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين » .

---

(١) السيوطى المزهر ج ١ ص ٣٨٧ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقال ابن فارس فى فقه اللغة (١) : « من سنن العرب فى الاسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو الجون للاسود ، والجون للابيض . قال : وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتى باسم واحد لشىء وضده ، وهذا ليس بشىء ، وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهندا ، والفرس طرفا هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد .. » .

ويقول الرافعى فى المشترك (٢) : « وهذا بلاشك فى أن مأتاه من تعدد الوضع ، وتباين اللغات ، لان الالفاظ متناهية ، والمعانى لاتتناهى ، فاذا وزعت هذه على تلك لزم الاشتراك ، واختصاص اللفظ الواحد بمعنيين أو أكثر .. » ثم يقول (٣) : « لاجرم أن الاشتراك وجه من وجوه الوضع فى اللغة . فان أكثره راجع الى الاشتقاق والمجاز كما يقال مشى من المشى ، ومشى اذا كثرت ما شيته . وكما نقلوا من أسماء الطير لاجزاء الفرس فسموا العظم الذى فى أعلى رأسه بالهامة ، وهو اسم طائر . وسموا دماغه الفرخ . والجلدة التى تغطى الدماغ بالنعامة . والعظم الذى تنبت عليه الناصية بالعصفور الخ وهى عشرون اسما » .

وواضح أن هذا الكلام يثبت التناقض ، ولسنا معه فى ذهابه الى أن التضاد ليس قديما فى اللغة ولا هو من سنن الوضع عند العرب لانه لاتمس اليه الحاجة الطبيعية ، وليس فى كل ما ورد من ألفاظه لفظة واحدة تفتقر اليها اللغة .. ثم قوله : « ولو صح أن التضاد قد تم فى اللغة ، وأنه ثابت فى أصل الوضع لفسد هذا الوضع ، وبطلت حكمته .. » .

فالحق أن الاضداد يجب النظر اليها نظرة دقيقة تحدد المستوى ، وتكشف العمق الذى يحيط بسرها . ان تلك النظرة ترفض النهج الذى فهمه الرافعى وغيره ذلك النهج الذى يحتم تعيين أحد المعنيين دون الآخر لانه لو تعين أحدهما دون الآخر لكاد ذلك اخلالا بالنظم

---

(١) نفس المصدر ١/٣٨٧ — ٣٨٨ وابن فارس الصاحبى ص ٦٦ .
(٢) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٩٠ .
(٣) نفس المصدر ص ١٩١ .

الذى من طبيعته أن يقتضى تعيينا وترتيبا ، ولكان ما يدل عليه من لفظ خاص أولى (١) •

والنظرة الدقيقة تفهم الاضداد باعتبار النظر اليها على أنها اللفظ الجامع للموقف الجامع للقدر المشترك • بمعنى أن الضدية هى تعبير عن دفاع خوافى العوالم قبولا ورفضا ، وصراع غوامض النداء سلبا وايجابا ، ونتاج تكثيف التجارب نفيا واثباتا ، وتعبير عن تردد خوالج الصدر سعة وضيقا وتأزم عوارض النفس خوفا وأمنا ، وتحير كوامن الانسان يأسا وأملا حيث تتكافأ أدلة العقول ، ويتفاوت وجيب القلوب ، حقائق مواثل للاذهان ثوابت للاعيان (٢) •

ونستطيع أن نقول : ان الاضداد لون من ألوان اللغة له مستواه الذى لايتنافى مع الحكمة والاتقان ، وما ينبغى أن يكون عليه أمر الواضع الواحد ، فالقدر المشترك الذى يؤديه يحمل الغرض ، ويوحى بالعمق ، وأن اللغة تضع الشىء المناسب فى مكانه المناسب حتى أنه لايمكننا وضع شىء آخر مكان هذا الذى يسمى بالمتضاد • فما القرء بالحيض وما القرء بالطهر (٣) •

يقول الراغب فى المفردات (٤) : «وليس القرء اسما للطهر مجردا، ولا للحيض مجردا بدلالة أن الطاهر التى لم تر أثر الدم لايقال لها ذات قرء وكذا الحائض التى استمر بها الدم والنفساء لايقال لها ذلك » ، وفسر قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ٢٢٨ م البقرة بثلاثة دخول من الطهر فى الحيض (٥) • والسر فى ذلك النفى ، المخالطة ، والفترة لاتدرى المرأة فيها من أمر استبرائها شيئا ، ومن ثم كان تقدير هذه المسألة ظنيا ، وعملية التربص دالة على أن الموقف قد ينبهم حتى قيل « متى حصل ظن زوال الحيض وجب الغسل » • ان الطهر محفوف بعدم التأكد من جانب

---

(١) د. محمد بدرى عبد الجليل — المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(٢) نفسه ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٣) نفسه ص ٢٠٣ .
(٤) ص ٤١١ .
(٥) نفسه ص ٤١١ .

البشرية محمول (١) .. ويمكن استخدام تلك النظرة الدقيقة فى تفسير أمثلة التضاد وكشف أسرار هذه الظاهرة . وحسبنا هذا المثال (٢) .

ولو فهم الرافعى وغيره المستوى الذى تسعى اليه الاضداد فى الحقيقة لادرك أنها تجارب العبث ، وتقضى على التباس الكلام ، ورجوع بعضه على بعض بالنقض ، ان التضاد اذا فهم مستواه ، ودرست حدوده ، وقد رما يمثله من حدود لا مندوحة عن تقديرها ورعايتها — أكبر دليل على أنه عقل مدرك أغراض الدلالة ، وأهداف الالفاظ . ان صاحب تاريخ آداب العرب تسرع فى الحكم بأن التضاد ليس قديما فى اللغة ، ولاهو من سنن الوضع عند العرب ، لان العلماء ذكروا شواهده من القرآن . مثل قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » ، وقول الله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » وقوله عز وجل : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » وقوله : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » .

كما ذكروا شواهد أخرى نقلها السيوطى فى المزهر (٣) عن أبى عبيد فى الغريب المصنف ، وابن دريد فى الجمهرة ، وغيرهما من العلماء الذين يعول عليهم فى الدرس اللغوى . ومن المعروف أنه ألف فى الاضداد جماعة من أئمة اللغة منهم قطرب ، والتوزى ، وأبو بكر ابن الانبارى ، وأبو البركات بن الانبارى وابن الدهان ، والصغانى (٤) . ومن الواضح أن تعدد معانى اللفظ ظاهرة لغوية نجدها فى جميع اللغات الشائعة (٥) ، وأن كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد (٦) .

---

(١) د. محمد بدرى عبد الجليل : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٢٠٣ .
(٢) انظر امثلة اخرى فى : محمد بدرى : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٣) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها .
(٤) السيوطى المزهر جـ ١ ص ٣٩٧ .
(٥) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٩٩ و د. محمود السعران — علم اللغة ص ٣١٠ — ٣١١ .
(٦) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٣١١ .

ومن الواجب بعد هذا كله أن ننتهى الى أن اللغويين المحققين يهتمون بالعلاقات العرفية التى تربط بين المبنى والمعنى ، ويعرفون أن منطق اللغة ومقولاتها يختلفان عن منطق الفكر ومقولاته ، حيث تعتبر النمطية الصياغية التى لاتخضع للفكر وانما تخضع لمقتضيات الرمز العرفى الاعتباطى ، وفئة علماء النفس فى رأيهم ترى المعنى غير عرفى ولا اجتماعى ، ولكنه خاضع للتكوين النفسى للفرد (١) •

والمعنى فى نظر الدراسات اللغوية الحديثة صدى من أصداء الاعتراف باللغة كظاهرة اجتماعية ، ونتيجة لتشابك العوامل المختلفة فى اطار سياق الثقافة الشعبية (٢) ، والرافعى صرح بأن اللغة بنت الاجتماع ، ثم ذكر بعد ذلك أنها عمل نفسى محض ، وفى ضوء ما ذكرناه نجده لم يسر على منهج واحد ، ونحن نتمسك بأن اللغة لاتكون الا اجتماعية ، وهى جهاز رمزى عرفى ، وظيفتها تحقيق الوجود الاجتماعى للفرد نفسه (٣) •

تخصيص المعنى اذا كان جنسا وتأكيده :

يرى الرافعى أن نظام المعانى بالالفاظ يعتمد على التخصيص المؤكد ، فاللفظ لايوجد المعنى ، فذلك ظاهر الاستحالة ولكنه يخصصه اذا كان جنسا ويؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسية حتى تنطق أجزاؤه وحتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى (٤) • وعملية التخصيص الدقيقة فى هذا النظام تمتد لتشمل أفرادا وأجزاء أو معانى ، وترمى الى ترتيب الاجزاء وابانة الصفات بألفاظ متباينة تعين الاجزاء أو الصفات على مقاديرها • كما ترمى الى تأكيد المعنى بالمبالغة فى تلوين صورته النفسية •

ومن الواضح أن التخصيص يقوم على تعيين درجات المعانى وتفصيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه

---

(١) د. تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٥ — ٢٧ .
(٢) نفسه ص ٢٨ .
(٣) نفسه ص ٣٤ .
(٤) تاريخ آداب العرب ج ص ٢٢٨ .

الاجزاء أو بصفاتها ، وهذا يبين أنه فى نظام المعانى بالالفاظ ليس ضربا يرتبط بكلمة واحدة كانت عامة ثم خصصت هى نفسها ، فهذا اللون الذى تنتقل فيه الكلمة عينها من العموم الى الخصوص — لون آخر ليس فيه تأكيد المعنى مبالغة فى تلوين صورته النفسية ، وليس له أجزاء تنطق ولا عمل له فى الترتيب أو الابانة . ان هذا الضرب يقصر معنى العام على بعض أفراده ، ويضيق شموله . أو يقصد ظاهرة التغير نحو التخصيص التى كثيرا ما تحدث فى اللغات بأن تخصص ألفاظ كان يستعمل كل منها للدلالة على طبقة عامة من الاشياء فيدل كل منها على حالة أو حالات خاصة . وهكذا يضيق مجال الافراد الذى كانت تصدق عليه أولا — ككلمة الفاكهة فى العربية كان من معانيها الثمار كلها ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالتفاح والعنب والموز والخوخ (١) . وكلفظ السبت فانه فى اللغة الدهر ثم خصص فى الاستعمال نفسه بأحد أيام الاسبوع ، وهو فرد من أفراد الدهر . ولفظ الصحابة وهو يعنى الصحبة مطلقا وقد خصص بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ولفظ الكفر ومعناه الستر والانكار وخص بانكار الدين . ولفظ التوبة الرجوع وخص بالرجوع عن الذنب (٢) .

وهناك أنواع أخرى من التخصيص لم يشر اليها الرافعى ، مثل التخصيص الذى يقع نتيجة الحذف كحذف المضاف اليه ، أو الصفة ، ومثاله لفظ الدنيا . والاصل الحياة الدنيا ، والجامعه والاصل المدرسة الجامعة ، والعملية أى الجراحية ، والكفيف ، أى مكفوف البصر ، والمحروم أى من المال (٣) . ومثل التخصيص بقرينة استعمال اللفظ فى سياق معين من الكلام ، وبحسب بيئة المتكلم أو المخاطب أو مناسبة الكلام كلفظ موسم بالنسبة للزراع أو الرعاة أو الصناع أو الباعة (٤) .

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٢) السيوطى : المزهر ج ١ ص ٤٢٧+ محمد المبارك فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢١٩ .
(٣) محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢١٩ — ٢٢٠
(٤) نفسه ص ٢٢٠ .

ومثل التخصيص بالحرف المعين اذ كان يعين على تمييز المعنى • ففى مادة الجر مثلا الحرف الصوتى هو الراء والجيم المعين ، وأوتر الجيم لما فيه من الجهد والشدة والقلقلة — وهو ابدال من أحد الرآات الثلاثة ، عند من يرى تكرر المقطع واتصاله وكالجيم الطاء فى طن ، والقاف فى غاق • وهذا عند من يرى أن الصوت الاصلى يغلب عليه مقطع واحد بسيط ، راء أو سين أو صاد أو غير ذلك وهذا المقطع فى أغلب الامر يتكرر ويتصل ، ولما أريد محاكاته فى اللسان السامى اقتصر منه على ثلاثة أحرف لطبيعة فى هذا اللسان تميل الى هذا القدر من الحروف ، ولكنهم أبدلوا من أحد الحروف حرفا آخر دفعا لثقل التكرار ، وليكون اللفظ فى صورة مركب من حرفين • وقد يتقدم حرف البدل وقد يتأخر وقد يكون التعيين بحرفين كما فى رشف (١) •

ومما يجدر ذكره أن « تخصيص العام لايخرج اللفظ العام عن دلالته على العموم بل هو الاصل فى دلالته • والتخصيص هو المحتاج الى القرينة ، فحيث لاتوجد القرينة فاللفظ العام حقيقة فى العموم » (٢) •

ومما يجب مراعاته فى التخصيص هو هذا التميز الذى نلاحظه فى دراسته ، وذلك الفهم الذى يستخدمه فى تقرير المناسبة ، وتلك المخالفة التى تشهد بالفطنة ، وترتبط بنسق شامل •

فلم يذكر الرافعى مثل هذه الامثلة السابقة وانما أتى بأمثلة أخرى تبرز التخصيص المؤكد وفلسفته مثل قوله (٣) : « فأول معانى الحياة الروحية الحب وهذه مراتبه عندهم • الهوى ، ثم العلاقة وهى الحب اللازم للقلب • ثم الكلف وهو شدة الحب • ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذى اسمه الحب • ثم الشعف وهو احراق الحب للقلب مع لذة يجدها ، وكذلك اللوعة واللاعج فان

---

(١) عبد الله العزازى فقه اللغة ص ١٣٠ — ١٣١ وانظر د. ابراهيم السامرائى فقه اللغة ص ١٩٥ وما بعدها

(٢) عبد الوهاب خلاف : مقال الاصطلاحات الفقهية مجلة مجمع اللغة — الجزء السابع ١٩٥٣م ص ٢٣٦ .

(٣) الرافعى : تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢٩ .

تلك حرقة الهوى ، وهذا هو الهوى المحرق • ثم الشغف وهو أن يبلغ الحب شغاف القلب وهى جلدة دونه • ثم الجوى وهو الهوى الباطن • ثم التيم وهو أن يستعبده الحب • ثم التبل وهو أن يسقمه الهوى ، ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى • ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجهه لايستقر وذلك لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائـــم » •

والاديب يرى أن مثل هذا المثال للتخصيص يصور دقائق الاشـــياء ، ويبرز جوانبهـــا الخاصـــة المتميزة وصـــفاتها المتفردة وذاتيتها ، ويعبر عن أنواع العواطف والمشاعر وغيرها فى أخص صفاتها ، ومختلف درجاتها وألوانها وفروقها وأجوائها المحددة مما يدل على بلوغ المستوى القوى فى التمييز ، والقضاء على الابهام والغموض ، بابراز الخصائص المميزة والفروق الفاصلة •

ويؤكد الرافعى أن العرب لم يدعوا معنى من المعانى الطبيعية التى تتعلق بالحياة الروحية أو البدنية مما تهيأ لهم الا رتبوا أجزاءه وأبانوا عن صفاته بألفاظ متباينة تعين تلك الاجزاء والصفات على مقاديرها وهو يرى أن ذلك يشهد للعربية بالعظمة والتفوق والسمو فى أوضاع المعانى وسياستها بالالفاظ ، لانه يحرك اللغـــة حتى بأنفاس الخطرات ، ويكشف كل عاطفة دقيقة ولو اختبأت فى أشعة من النظرات ، فدوره كبير فى حقيقة التمدن وعظمة الثروة ، وما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية (١) •

ويصرح الاديب الباحث بأنه قد اعتمد فى شرحه نظام المعانى بالالفاظ على كتاب فقه اللغة للثعالبى ، واستفاد من الامثلة التى ذكـــرها (٢) •

يقول صاحب تاريخ آداب العرب (٣) : « وعلى أكثر هذا النوع من نظام المعانى بالالفاظ بنى الثعالبى كتابه فقه اللغة ، وهو أشهر

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ — ٢٣٠ .
(٢) المصدر ذاته ص ٢٣٠ .
(٣) الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٠ .

من أن ينبه عليه ، ولذا أوجزنا فى أمثلته اكتفاء بالدلالة على مظنتها ، والحقيقة تنهض بها الكلمة الواحدة» والحق أن الثعالبى حشد تحت كل نوع من أنواع الموجودات ، وكل ضرب من ضروب الاشياء والنبات والحيـــوان والآلات والمرافق وصفاتها عددا كبـــيرا من المفردات المختلفة فى معانيها ودلالاتها • وفى كتابه أيضا ألفاظ كثيرة وتعابير للاحساسات والمشاعر وغير ذلك مما يدل على أنه قـــدم الكثـــير فى باب التخصيص الذ ىعنى به الرافعى •

ولا يخفى الاديب أنه قد اعتمد أيضا فى نظام المعانى بالالفاظ على ما ذكره السيوطى فهو يقول (١) : « ومن معانى الحياة البدنية أصول المعاش الطبيعية التى هى قوام أمرهم ، كاللبن ، فان له نحو سبعين اسما باعتبار اختلاف أحواله وقد ذكرها السيوطى كلها فى المزهر (٢) •• وكذلك الخيل ، والابل ، والشاه • ثم صفاتها وتسمية أجزائها ، ونحو ذلك مما نكتفى لشهرته بالاشارة اليه » • وليس معنى هذا النهج أننا نحتاج الى الالفاظ الخاصة الدقيقة ، ولانحتاج الى المعانى العامة أو المعنى اذا كان جنسا • وانما المقصود أننا نحتاج الى التخصيص الى جانب غيره ، ولا نستغنى عن استعمال اللفظ العام والخاص كل فى موضعه اللائق به ، ومكانه المناسب له •

والمثال الذى استشهد به الرافعى يؤكد الحاجة الى الاثنين ، لانه ذكر لفظ العام أو لفظ المعنى اذا كان جنسا ثم ذكر الالفاظ التى عبرت عن مراتب التخصيص والكمال يحتم ذلك حتى تتكافأ النفس واللغة فى تصور أجزاء المعانى وتصويرها •

والاديب يهتم بعملية التخصـــيص اهتماما واضحا ، ولكنـــه يلجأ الى الغلو والاسراف حين يقرر أن مراتب الحب التى يبرزها التخصيص ، والتى يشير اليها العرب بالالفاظ التى ذكرناها فى المثال الذى أتى به « يشير اليها غيرهم بتعاريف وفصول واصطلاحات ثم لاتعدو بعد ذلك كله ما كان يفهمه العرب منها برقة شـــمائلهم ، ولطف حواسهم النفسية ، فكأنهم لمـــا عدموا العلوم جعلوا ألفاظهم

(١) نفســـه ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) انظر الجزء الاول ص ٤٤٠ — ٤٤٣ .

فصولا علمية ، وذلك منتهى ما يكون من تمدن اللغات (١) » ان الكلام المذكور يعطى الالفاظ قدرات ومستويات تجعلها فصولا عملية ، وأدلة على التمدن ، فقد حددت المراتب ، وصنعت ما صنعته فى رأيه دون وضعها فى جمل أو عبارات أو اطار معين ، وأصبحت رمزا للكمال والتمـــدن •

ونحن نخالفه ، لانه قد فاته أننا حين نعبر عن المعانى نضطر الى التغاضى عن قدر ما منها ، وسر ذلك أن الكثير منها لايستطيع المتلفظ أن يضمه الى عبارته • ويختلف هذا المدى تبعا لعوامل شتى يحكمها ما ينسب للمجتمع والبيئة والطائفة ، وما قيل من عبارات فى مظان أخرى ، وكل ذلك يضاف اليه ما حوله من قرائن حاكمة (٢) •

ولابد من تقدير حكم السياق ، ومراعاة منهج الاطار ، وملاحظة حق الاعتبار وعدم اهدار أثر الزمن فى المعنى ، ولابد من تذكر أن الدلائل اللفظية لاتكون منطقية (٣) •

ونظرة الرافعى تجعل الالفاظ تكشف المـــركز والهامش أى تكشف الدلالة المركزية التى تعد المشترك الذى يسجله اللغوى فى معجمه ، ويسميه بالدلالة المركزية ، ليصل بين الناس ، ويساعد على تعاونهم ، ويؤدى الى نوع من الفهم التقريبى الذى يكتفون به فى حياتهم ، وقضاء مصالحهم ، وتكشف الفروق التى تلون الدلالات بلون خاص فى ذهن كل منهم ، وتعتبر ظلالا لاتختلف باختـــلاف الافراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجســـامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وغير ذلك مما يسمى بالدلالة الهامشية (٤) ويبدو أنه يصر على ما تفرضه النظرة الواحدة ، وتجرى على أن هناك مطابقة بين ما يدور فى خلد المتكلم ، وما يدور فى خلد السامع بين

---

(١) الرافعى :تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٣٠ .
(٢) د. محمد بدرى عبد الجليل : المجاز واثره فى الدرس اللغوى ص ٥٢ .
(٣) الرازى اساس التقديس ص ٢٢٢ وابن الجوزى نقد العلم ص ٤٥ .
(٤) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مستوى المتكلم ومستوى السامع ، ويظن أن مايفهمه السامع هـو ما يقصده المتكلم .

والواقع يقرر أن الناس ليسوا سواسية أمام الالفاظ ، ولسنا نعتقد أنها تملك القدرات وتجلى الظلال التى تثير الفروق ، وتحمل أثر البيئات المختلفة ، والتجارب المتباينة ، والحوادث الكثيرة ، والثقافات المتعددة وغيرها .

ولا ريب فى أن الدلالة الهامشية تسـيطر على أذهان بعض الناس ، وأحيانا تفشل فى أداء مهمتها ، فقد تسمى الاشياء بغير أسمائها أو يزاد أو ينتقص من دلالاتها . وسواء أكانت تلك الدلالة الهامشية سببها الهوى والغرض أو عن عقيدة وايمان فهى تتصل اتصالا وثيقا بما يسمى عند علماء النفس بالعاطفة .

ومن المعروف أن الدلالات المركزية لايقنع بها الادباء والشعراء والدلالات الهامشية فى أى لغة من اللغات مسألة فردية شخصية لاتكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها (١) .

ومما يدل على أن الرافعى ينظر الى الناس نظرة واحدة ، ويجرى على أن هناك مطابقة بين المتكلم والسامع أنه يرى أن رقة الشمائل ولطف الحواس تفهـم من الالفاظ المستوى الـدقيق من التخصيص والتمدن الذى وصل الى المنتهى دون اعتبار لامر البيئة الخاصة والقائل وما حوله من تجربة ومعارف وخصائص وملابسات ودون تقدير لامر السامع الذى يضيف أحيانا ما يفيد دلالة معينة لا تنصرف اليها معانى الالفاظ .

ولا أدرى كيف تستطيع رقة الشمائل أو لطف الحواس انكار تأثر الالفاظ بالازمان والاحداث والتطورات أو تجاهل أن الدلالات لايمكن أن تنقاد كاملة ما دامت هناك خلفيات واعتبارات ؟ !

---

(١) د. ابراهيم انيس : دلالة الالفاظ ١١٦ — ١١٨ .

ولا نستطيع أن نقول : ان ألفاظ الزمان ، والحين ، والغنى ، والكرم ، واللؤم ، ونحوها تعد فصولا علمية لان هـذه الالفاظ استترت مدلولاتها فعولت الائمة فى تحديدها على البصيرة ، وقالت فيها بالتقريب والاحتمال (١) .

والرافعى يلوذ بالحياة الباطنة التى تشبه ما فى الانسان الراقى مما يسمى بالكمال أو الحياة الروحية العالية ، والامر فى الفصول العلمية أمر ضوابط وقواعد ومناهج واضحة ، لا أمر مبالغة وغلو وابهـام .

وهو يدرس الكلمة المفردة ، ولايحسب حساب التطور اللغوى الذى لايقف عند الالفاظ وحدها ، بل يشمل جوانب اللغة وأصولها من اللفظة المفـردة الى التركيب ، وما بينهما من قواعد النحـو والصرف .

والفصول العلمية يمكن أن تقال فى تحديد بعض المعانى . مثل معنى الملح أو السكر عند دارس الكيمياء ، فهو يعرف كيف تتكون ، وممم تتكون . ويؤلف لنا معادلة كيميائية ، تعد فى الحقيقة التعريف الصحيح الدقيق لهذا الشىء المألوف لنا جميعا (٢) .

والاديب يقول رأيه الشخصى متأثرا بعبقرية الالفاظ وسحرها وجلالها وكمالها وينبه على أن أرقى الامم مدينة « اذا بلغت فيها المعانى النفسية مبلغ الهرم ، وتعلقت بها الخواطر من كل جهة بحيث تفصل أجزاءها تفصيلا فجهـد الامة عـند ذلك أن تحيط المعنى باصطلاحات علمية ، وتعرف حوادثه على نحو ما تعرف به فصول العلوم . كالحب مثلا فان مراتبه التى يشير اليها العرب بالالفاظ المتقدمة يشير اليها غيرهم بتعاريف وفصول واصطلاحات .. » (٣) .

---

(٢) انظر : الفيروزبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٢ ص ٤١٦ .
(١) د. كمال بشر : دراسات فى علم اللغة القسم الثانى ص ١٦٣ .
(٢) الرافعى : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٣٠ .

ونحن ننبه على عدم امكان تحديد الدلالات المجردة كالحب والكره والسعادة وغير ذلك التحديد الذى يشير الرافعى الى مستواه الدقيق ،ومنزلته العالية فليست لدينا طرق دقيقة لتحديد معانى الكلمات المذكورة لانها تتصل بمواقف غير محددة تحديدا واضحا ، وهذه المواقف تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الانسانى • وسبق أن ذكرنا رأى بلو مفيلد فى تحديد معانى بعض الكلمات ، واشارته الى الصعوبات الجمة التى فى الطريق •

ومما يجب مراعاته أن الاصطلاحات العلمية تشير الى المتغيرات التى يواقعها المجتمع ، وتؤكد التطور فى التعليم ، كما تعبر عن تجدد الحياة ونمائها ، والاختلاف فى المذهب والمنهج والثقافة وغيرها• ومراتب الحب التى أتى بها فى مثله — لم تمثل المستوى الذى تمثله المصطلحات العلمية المتفق عليها فى بعض العلوم ، فليس فيها رأى قاطع أو اتفاق لايحتمل النقض أو الطعن أو غير ذلك • انها فى الحقيقة لم تبلغ درجة الاحكام أو منزلة الاتقان والكمال فى التخصيص كما ظن الرافعى • والتحقيق يثبت أنها ليست فصولا علمية على النحو الذى ذكره لما فصلناه ، ولهذه الامور أيضا :

١ — أن هذى الالفاظ التى يعدها الرافعى تشير الى مراتب الحب لايمكن أن تحقق المستوى الذى يحيط المعنى تلك الاحاطة الفاصلة القاطعة التى تصنع ما تصنعه التعاريف والفصول والاصطلاحات لان ما ذكر فى كل منها ليس هو كل شىء فى ادراك المعنى ، وهذه الالفاظ يمكن اعتبارها كالجنس الذى تبين مراتبه فاذا كان الحب جنسا فان الهوى جنس ، وكذا العشق (١) ، وغيره • ان كل لفظ يتنوع ويتعدد • وعملية التخصيص ليست القول الفصل كما ظن الرافعى •

٢ — أخذ الرافعى بما قاله الثعالبى فى مراتب الحب (٢) ، ولم يقم بتحقيق النسق الذى نقله ولو حقق هذى الالفاظ لوجد أن المعاجم

---

(١) انظر الفيروزبادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٥ ص ٣٥٩ القاهرة ١٩٧٠ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .
(٢) الثعالبى : فقه اللغة ص ٨٤ القاهرة مطبعة الحجر ١٢٨٤ هـ

لاتسلم بصورة الترتيب كما جاء ، وفيها ما يدل على تساوى بعض الالفاظ مما يدل على أن الالتزام بهذا الترتيب لايفرضه الا ما جاء به الثعالبى • فأول معانى الحياة الروحية الحب وهذه مراتبه الهوى ثم العلاقة ثم الكلف ثم العشق الخ • ويرى الجوهرى فى الصحاح أن هذا الشىء أهوى الى من كذا أى أحب الى •• وهوى بالكسر يهوى هوى أى أحب •

وفى القاموس أن الهوى : العشق يكون فى الخير والشر • وفيه وهويه كرضيه فهو هو أحبه • وهذا واضح فى تساوى الهوى والحب ، والهوى والعشق وان جاء فى مثال الرافعى ما يوحى بغير ذلك • وفى البصائر يقول الفيروزابادى (١) الهوى ميل النفس الى الشهوة •• وقيل الهوى العشق ويكون فى الخير والشر • والهوى أيضا ارادة النفس • والهوى المحبة • وواضح أن ذلك لايقر صورة ترتيب المراتب . ولايعترف بالفصول العلمية التى يقصدها الرافعى . فالاختلاف بارز • والعشق فى القاموس عجب المحب بمحبوبه أو افراط الحب • ويكون فى عفاف وفى دعارة أو عمى الحس عن ادراك عيوبه أو مرض وسواس يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور • وفى القاموس أن الكلف بالكسر الرجل العاشق• وفى مادة عشق يذكر الفيروزابادى أن تعشقه تكلفه •

ويقول الجوهرى فى علق : وقد علقها بالكسر وعلق حبها بقلبه أى هويها • ويذكر قبل ذلك أن العلق الهوى يقال نظرة من ذى علق ثم يقرر فيما بعد هذا وذاك أن العلاقة بالفتح علاقة الخصومة وعلاقة الحب • والجوى عنده : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن • وفيما نقله الرافعى : الهوى الباطن • والجوى قريب فى الحقيقة من الشعف واللوعة واللاعج ، ولكن الثعالبى أخره ، وتبعه الرافعى • والامثلة التى ذكرناها هى خير رد على مسألة المراتب ، وقضية الفصول العلمية •

---

(١) ج ٥ ص ٣٥٩ .

٣ ــ يقول الفيروزابادى فى الحب والمحبة (١) : « ولا تحد المحبة بحد أوضح منها • والحدود لاتزيدها الاخفاء وجفاء • فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وانما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشـــواهدها وثمراتها وأحكامهـــا ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة » وهذا الكلام لايعرض للمراتب ، وانما ينبه على ما يزيد الخفاء والجفاء ، ويحدد الجوانب التى يتناولها الناس •

(١) البصـــائر ج ٢ ص ٤١٦ .